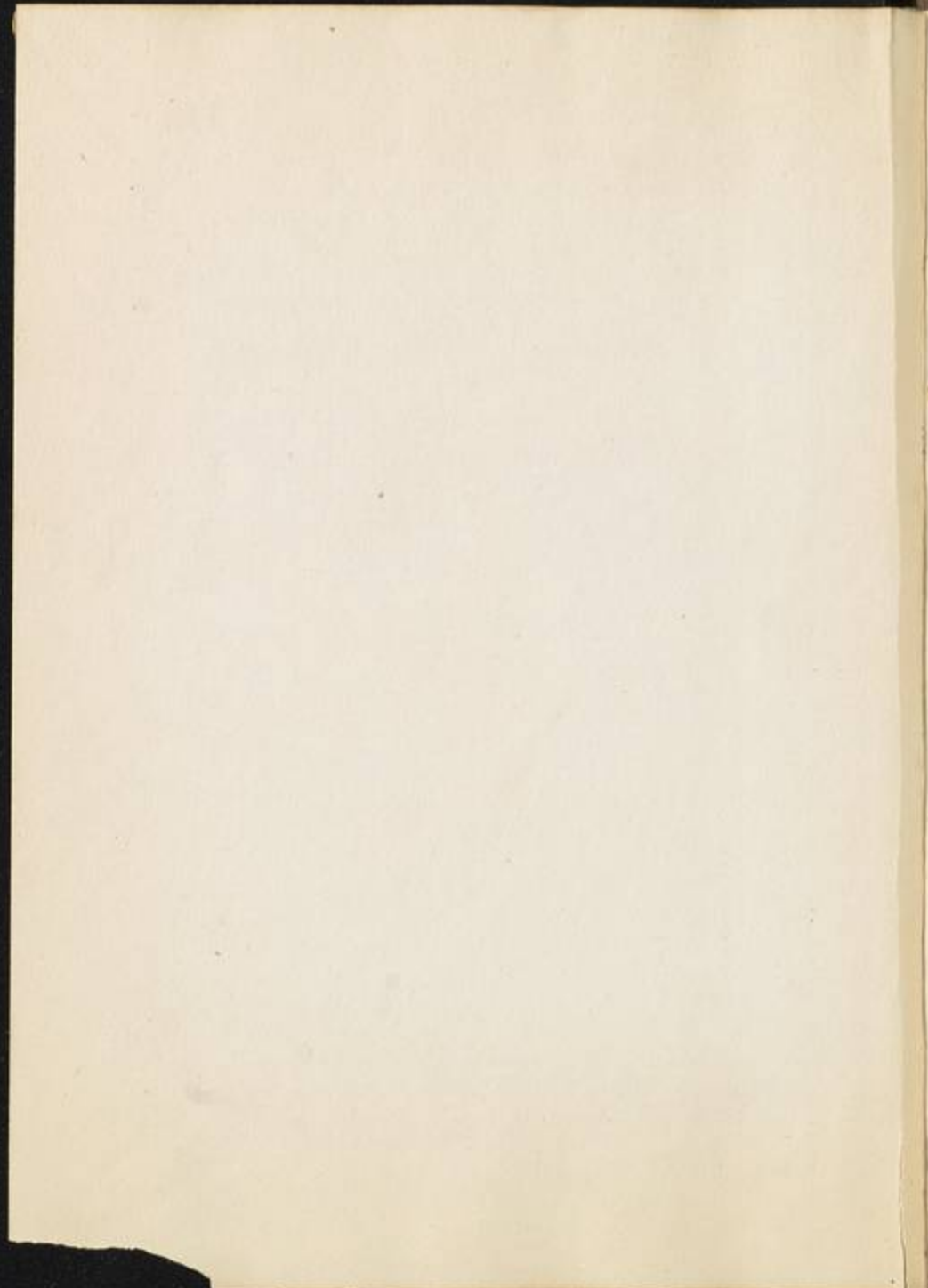
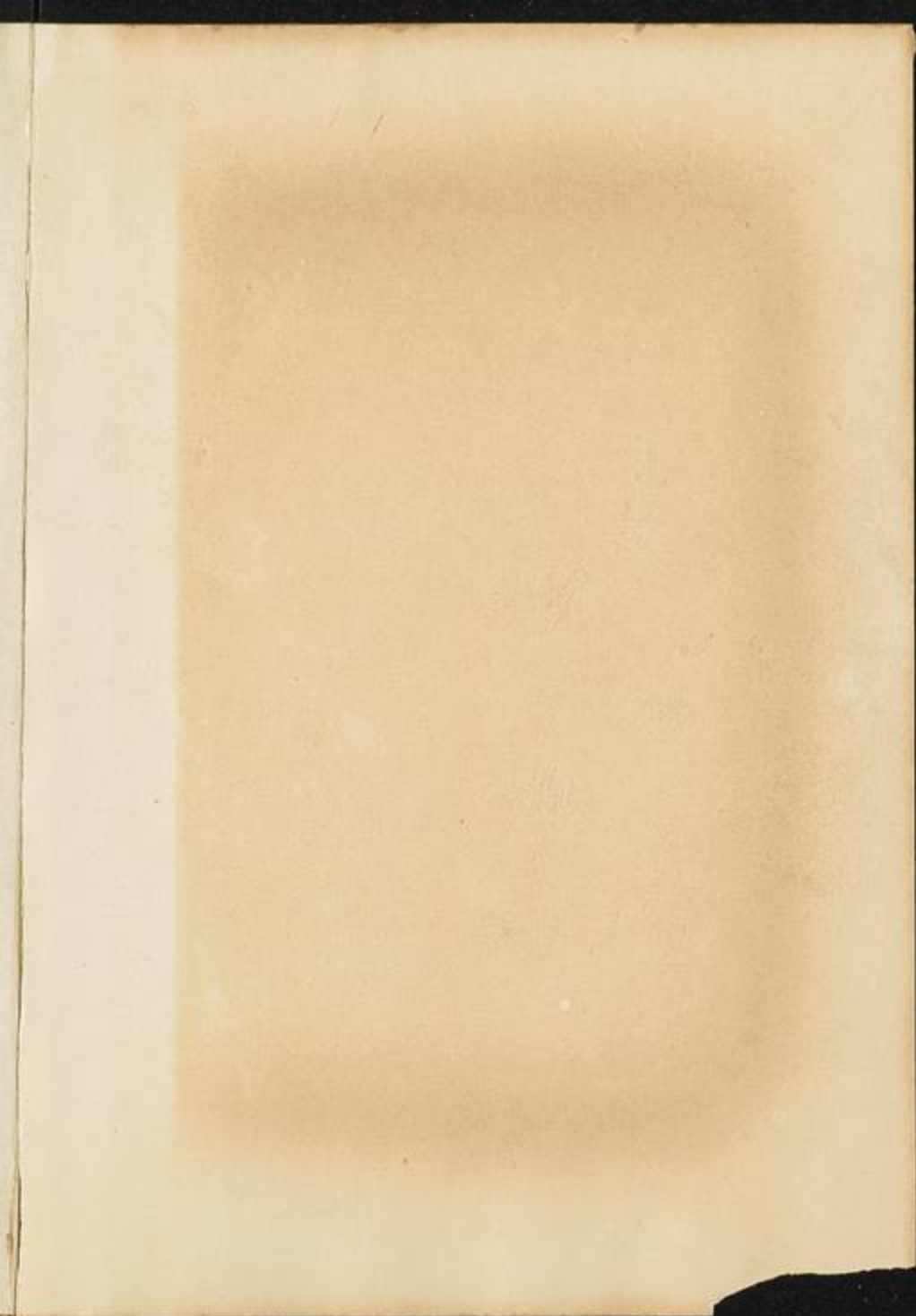


Columbia University  
in the City of New York

THE LIBRARIES







PT 20-2070 Halabiy  
9/8/45

مجلس ترجمة دائرة المعارف الإسلامية

©

no Nouvelles  
اعلام الاسلام

398 France 70

# الشعراني

إمام التصوف في عصره

الدكتور توفيق الطويل

مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

مكتبة الطبع والنشر  
دار الحياة  
بيروت  
عيسى السباعي والمسلمين وشركاه

893.1991

T 198

## مقدمة

عشت مع صوفية العصر العثماني في مصر أعواماً طويلاً ، ثم انشغلت عنهم بوجوه من البحث ، تقرب منهم حيناً وتبتعد عنهم أحياناً ، وكانت النفس تنازعي - إبان هذه السنين - إلى معاودة النظر في تصوفهم ، والتأمل في التجارب الروحية التي عاشوها ، والحياة المادية التي زاوولوها ، يُغذى وقدّة النزوع عندي ، ظلامُ الجو الذي اكتنف عصرهم ، وغرابة الأطوار التي أحاطت حياتهم ، ولذّة الارتداد في المناطق المجهولة من دنياهم .

وقد كان إمامهم الذي التقت عنده زعامة الطريق وصدارة العلم في عصره: عبد الوهاب الشعراني ، أو الشعراوي فيما يسمى أحياناً ١٨٩٨ - ١٩٧٣ هـ - (+ ١٥٦٥ م) ولهذا آثرت أن أفرد به هذا الكتيب المتواضع .

ولكن هذا موضوع بَكر ، لم يهتك البحث العلمي المفصل ستره ، ولهذا تحريت أن أتسلل إليه من أقرب أبوابه ، فعنيت عند دراسة الشعراني بما وقع لي من آثاره ، ما طبع منها وما لم يزل مخطوطاً ، مع توخّي الاهتمام بدراسة الصوفي من هذه المؤلفات ، واستعنت - بعد هذا - على كمال فهمه بما كتبه تلامذته ومن قرب عهدهم به من الكتّاب ، وحرصت - مع هذا -

MAR 5 1953  
LMBL

على الاطلاع على أبحاث المستشرقين والشرقيين الذين عرضوا لدراسته ،  
وما أقل ما كتبوا عنه ، وخالوا أكثره من كل غناء ، ومن أجل هذا  
- وتمشياً مع منهج البحث العلمى - احتلت كنبه المكان الأول فى دراسته .  
على أنى قد حرصت على أنضو عن هذا الكتاب جفاف البحث العلمى ،  
وحاولت أن أخلع عليه مسحة من جمال التصوير الفنى ، ومع هذا توخيت  
فيه التزام الدقة العلمىة ما استطعت إليها سبيلاً ، ولبس أحب إلى من أن يكون  
هذا الكتيب ، حلقة أولى فى سلسلة كتب تبنى عليه عمقاً وشمولاً ، وحسبى  
منه أن يكون مثار التفكير عند جمهرة القراء والباحثين على السواء ؟

توفيق الطويل

الإسكندرية فى { شعبان ١٣٦٤ هـ  
يوليو ١٩٤٥ م }



## لمحة إلى عصر الشعراء

### معالم عصره :

أقبل القرن العاشر للهجرة ، وحكم المماليك يؤذن بالمغيب ، ومصر تتأهب لاستقبال الحكم العثماني ، وكأنما سبقته إليها مواكب الضنك والظلم والجهل والفساد .. ! فسدت أداة الحكم واضطرب الأمن ، واكتشف رأس الرجاء الصالح ، فانطوت مصر على نفسها ، واعتزلت العالم الأوربي ، في وقت كان يعج فيه بنهضة تستغرق مرافق حياته ، وتشيع في أهله الكلف بالعلم ، والنزوع إلى الفكر الحر<sup>(١)</sup> .

ولما نزل العثمانيون بمصر ، أزالوا عنها خلافة الإسلام ، وأفقدوها زعامتها على دوله ، وزادوا أمنها اضطرابا ، وحكمها فسادا ، وعيشها ضنكا ، إذ أرهقها غزاتها بمغانمهم ، ومظالمهم في العبث بالنباس ، وفرض الضرائب واغتصاب الخراج والمهدايا عنوة واقتدارا ، ونقلوا خيرة صناعتها إلى الآستانة ، وأهملوا

(١) للتباين الملحوظ بين نهضة أوروبا وركود العالم الإسلامي في ذلك العصر ، أنظر :  
E. J. W. Gibb, A Hist. of Ottoman Poetry ج ١ ص ٥ وكذلك Nickolson  
A Litt. Hist. of the Arabs ص ٢٤٣

الزراعة ووجوه إصلاحها ، وأخلفوا سنة المالك في رعاية العلم ، فاستفحل  
الجهل واستشرى في البلاد طولا وعرضا .

وكان المثل الأعلى للعلم ، لا يكاد يتجاوز الدين وعلومه التقليدية - من فقه  
وتفسير وحديث - واللسانية - من نحو وبيان ولغة - وجمدت الدراسات حتى  
تحول التأليف إلى شروء على متون ، أو تعليقات على شروح ، وركدت  
العلوم العقلية حتى أضحي طلبها فرض كفاية ، متى قام به البعض سقط عن  
الباقين .. ! وانحصرت مراکز الثقافة في الأزهر ومجالس الوعظ في المساجد  
وزوايا الصوفية<sup>(١)</sup> .

وفي هذا الجو المغمّ نشأ أبوالمواهب عبد الوهاب الشعرائي (١٨٩٨ - ١٩٧٣هـ)  
عملاق عصره علما وتصوفا ، صحب حكم المالك في مصر حتى بلغ الخامسة  
والعشرين من عمره ، ثم قضى في صحبة الحكم العثماني خمسين عاما طوالا ،  
تلقى فيها العلم عن صفوة معاصريه وأسلافه ، من رجال الشرع وأرباب  
التصوف ، والتقت عنده آلام بيئته وآمالها ، ثم ارتدت فيضا من المعلومات ،  
حفلت بها عشرات الكتب ، وضعها في شتى فروع العلم في أيامه ، فكان  
روح عصره ، وطابع الأجيال التي أعقبته ، فلتنف قليلا عند :

---

(١) ابن إياس ومحمد فريد أبو حديد ( سيرة السيد عمر مكرم ) والرافعي وما أورده من  
مصادر في تاريخ الحركة القومية ج ١ ص ٤٥٠ وما بعدها طبعة أولى .

## التصوف في عصره :

فسد الجوفى في مصر قبل العصر العثماني وفي إبانه ، على ما أشرنا منذ حين ، فاستجاب الناس لهذا الفساد بالتصوف ..! افتقدوا الحاكم القوي الذي يؤمنهم على نفوسهم وما ملكوا ، فلأذوا بالله ، والتسوا العدالة فيما وراء الدنيا ، حيث لا ظلم ولا فساد ، ومن هنا كان الكلف بالتصوف ، والإقبال على أهله . وقوى من هذا النزوع الصوفى ، ما خضعت له مصر من الدعوات السرية التي فشت في أرضها منذ أيام الفاطميين .

والأصل في التصوف - فيما يقول ابن خلدون « العكوف على العبادة ، والانتقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة <sup>(١)</sup> » ثم أدركته العناية بالأبحاث العقلية ، ونزع البعض إلى إقامته على أسس فلسفية ، وأخذت تظهر عند أهله النظريات الفلسفية في المعرفة والوجود ، ولكنها كانت لاتساير المؤلف عند السلف ، فتنكر لهذا النوع من التصوف أهل السنة في العالم الإسلامي ، وضاقوا بالنظريات الفلسفية الجاحمة ، التي يأوى إليها المتطرفون ممن انتهوا إلى القول بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود ، وتصدى الأشاعرة لإنكار هذا الجوح ، وهاجموا الفلاسفة والمعتزلة - دعاة التأويل في نصوص الكتاب - وانتصر لمثلهم حجة الإسلام « الغزالي » ، ولكنه

(١) ابن خلدون في مقدمته ص ٤٠٨ طبعة الهيئة بمصر .

أبقى على التصوف الذى يسير التعاليم الدينية ويتمشى مع روح السنة ، وسرعان ماغلب هذا النوع من التصوف المسائر لمبادئ السنة ، على التصوف القائم على النظرات الفلسفية الدقيقة ، وانتهى هذا النزوع إلى إثارة العمل على النظر ، وتغليب التعبد على التأمل ، ومن هنا رجح الاهتمام بالسلوك ، وما يقتضيه من وجوه الطاعة وتربية النفس والزهد والتقشف والحرمات والزلفى إلى الله ، وكاد ينطفىء الجانب النظرى فى العالم الإسلامى ، قبل مجيء العصر العثمانى بنحو ثلاثة قرون .. ! وبهذا عاد التصوف فى مرحلته الأخيرة ، إلى ما كان عليه فى مرحلته الأولى . وسنعود إلى بيان هذا فى الفصل الذى سنعقده عن الحياة العلمية . وما أقبل العصر العثمانى حتى كانت مصر قد عرفت كثرة من « الزوايا » التى ينشئها لشيوخ الطريق أهل اليسار ، ليقيموا فيها مع أتباعهم جماعات ، منقطعين لعبادة الله ، متجردين لذكره ، معرضين عن الدنيا ، زاهدين فى وجوه اللذات ، منصرفين إلى التفقه فى الدين والعلم بأحكامه ، فأخذت هذه الزوايا مكان الخوانق والزبب ، فى عصر الأيوبيين وسلاطين المماليك فى مصر<sup>(١)</sup> ، فقد تلاشت هذه المعابد حين نزلت بمصر الحن ، قبل بدء العصر العثمانى ، وقد كان أهلها : يقيمون على طاعة الله ، يدفعون بدعاتهم البلاء عن العباد والبلاد ، وشرأظهم قطع المعاملة مع الخلق ، ووصلها بالحق ،

(١) المقرئى فى خططة ج ٤ ص ٢٧٣ وما بعدها وعلى مبارك فى خططة ج ١ ص ٨٩

وترك الاكتساب ، اكتفاءً بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن الخاطات ، واجتناب التبعات ، وانتظار الصلوات ، واتقاء الغفلات ... إلى آخر ما يقوله السهروردي والمقرئزي معاً<sup>(١)</sup> . وقد كان هذا هو الغرض الذي كانت تنشأ من أجله زوايا الصوفية قبيل الحكم العثماني وبعده .

على أن فساد الجو ، وضنك العيش ، وشيوع الجهل ، قد أغرى الكثيرين من الأدعياء باحتراف التصوف ، واتخاذ أداة للكسب ، ووسيلة لآتقاء المظالم ، وطر يقا إلى اقتناص السمعة الطيبة ، والمركز الملحوظ ، والجاه العريض .

وأقبل على هؤلاء الأدعياء ، أهل الغفلة من الناس ، وما كان أكثرهم .. فاختلط الدجالون بالصادقين من أهل الطريق ، وبدأت هذه الظاهرة منذ أواخر عصر السلاطين ، وامتدت إلى العصر العثماني ، وقد ازداد تيارها قوة ، ومعالمها وضوحاً ، حتى كادت أن تخفى من التصوف الصادق صفحته المشرقة الوضأة ، فأما الصادقون من أهل التصوف ، فقد أخذوا يزاولون ما يقتضيه الطريق من شعائر الدين ويستلزمة من التفقه بأحكامه ، ويتطلبه من التجرد لذكر الله ومواصلة عبادته . وأما الأدعياء - وكان صوتهم غالباً - فقد استغلوا سذاجة الناس ، وعملوا على التمكين لنفوذهم ، حتى إذا تم لهم ما أرادوا ، جهروا بالتمرد على أبسط قواعد الدين وأوضاع العرف ، مُدعين سقوط التكليف الدينية عن كل « واصل » ، وكانوا بعد هذا في أمان !

(١) السهروردي في عوارف المعارف ص ٤٥ وما بعدها والمقرئزي ح ٤ ص ٢٩٢ وما بعدها .

## دلالات التمرد على الدين باسم التصوف :

ومن دلالات هذه الظاهرة الطريفة ، أن يجلس الشيخ شعبان المجذوب على كراسي المساجد أيام الجمع وغيرها ، ويقرأ ما يزعم أنه قرآن كريم .. ! وقد سمعه الشعراني يقول على طريقة قراء القرآن في البيوت: « وما أتم في تصديق هود بصادقين ، ولقد أرسل الله لنا بالموثفاتك يضر بوننا ويأخذون أموالنا، وما لنا من ناصرين ، » ثم يعقب على هذا قائلاً : اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان .. ! ويعلق الشعراني على ترجمته قائلاً : « ولم أسمع قط أحداً ينكر عليه شيئاً من حاله ، بل يعدون رؤيته عيداً عندهم<sup>(١)</sup> » .. !

وكان إبراهيم العريان يصعد إلى منبر المسجد عارياً ، ويخطب في الناس قائلاً : السلطان ودمياط وباب اللوق وبين الصورين ، وجامع طولون والحمد لله رب العالمين « فيحصل للناس « بسط عظيم » فيما يروي الشعراني<sup>(٢)</sup> .. ! وهذا بالإضافة إلى التهاون في فرائض الدين والاستخفاف بأوامره ونواهيه ، ومن شواهد هذا أن يمكث الشيخ تاج الدين الذاكر بوضوء واحد سبعة أيام امتدت أواخر عمره إلى أحد عشر يوماً<sup>(٣)</sup> .. !

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٦٠ طبعة عام ١٣١٧ هـ وعلى مبارك ج ٦ ص ٣٣ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ١١٣ .

و يتوضأ « أبو السعود الجارحى » أول رمضان فلا يعيد الوضوء إلا بعد العيد بستة أيام<sup>(١)</sup> ..! ويتعقب « أبو خودة » وغيره من أديعاء الطريق ، حسان الغلمان والنساء ، آمنين شر الإنكار من سوء ما يفعلون<sup>(٢)</sup> ..! وهؤلاء جميعاً أضرحة في مصر تزار ، وتلتمس « البركة من أهلها . » ..!

على أن هذا كله ، لا ينبغي أن ينسبنا أمر الصادقين من أهل التصوف في هذه الفترة ، فقد أقاموا على ذكر الله وطاعة أوامره ، والاستجابة لنواهيه ، وخفوا لفعل الخير كما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، فكانت زواياهم مراكز للعبادة والتثقيف وتطهير القلوب وتنقية الضمائر وتهيئة النفوس - بعد تصفيتها - لإذاعة الخير والمعروف يميناً ويساراً . ولكن كيف كانت الحياة في هذه الزوايا ..؟

### زوايا الصوفية وحياة المجاورين فيها :

هى معابد تشبه - من بعض الوجوه - أديرة المسيحيين وقد فشّت في أرض مصر ، واجتذبت إليها الألوف من أهلها ، أقامها شيوخ الطريق ، أو

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٤ .

ملحوظة : أكثر المخطوطات رقت أوراقها لاصفحاتها ، وقد أشرنا بعلامة + إلى الصفحة المقابلة للصفحة المرقمة .

(٢) الطبقات الوسطى ص ٢٤٣ و + ٢٤٤ والكبرى ج ٢ ص ١١٨ وقارن

الطبقات الصغرى ص ٨٨ والغزى في الكواكب السائرة ج ٢ ص ٢٥٩ .

شادها لهم ولأتباعهم الأمراء وأهل اليسار من المحسنين ، ممن استبد بهم الإعجاب بهؤلاء الشيوخ .

وقد ضمت هذه الزوايا المجاورين من مريدي الشيوخ ، وعاشوا في كنفها مع زوجاتهم وأولادهم طاعمين كاسين ، من فيض ما كان يحبس عليهم من الأوقاف ، ويجزل لهم من العطاء ، ويجرى عليهم من الأرزاق ، لأن أصحاب الأملاك منهم ، قد تخلوا عنها جميعاً يوم انضموا إلى زمرة المجاورين ، وكانت الزاوية الواحدة كثيراً ما تضم من هؤلاء بضع عشرات ، وقد يرتفع العدد في بعض الأحيان إلى عدة مئات<sup>(١)</sup> . . ! ومن هنا مست الحاجة إلى وجود كثرة من النقباء ، قد يبلغون العشرة في الزاوية الواحدة ، يتولون توزيع الطعام ، وتقسيم الهدايا ، ومراعاة آداب الغذاء ومقتضيات الكساء ، وحصر صدقات الشيوخ على المعوزين ، وحفظ النعال ، وسقي الماء للذاكرين وترتيب مجالس الذكر عند غياب الشيخ ونحو هذا مما تقتضيه حياتهم .

وكان لكل نقيب عمل يختص به ويقوم على أدائه ، ملتزماً مراعاة آدابه وشروطه ، فمن هذا حرص نقيب النعال على صيانتها وحسن استقبال أهلها ، واتباع ساقى المياه شروط النظافة واختيار الوقت الملائم لأداء مهمته ، وتوخى نقيب السباط مراعاة النشاط في عمله ، وتنبيه غيره إلى آداب الطعام ،

(١) الطبقات الوسطى + ٢١٣ والكبرى ج ٢ ص ٧٥ .



والتزام نقيب الحضرة للبشاشة عند استقبال الزائرين ، وإيقاظ الفقراء للتهجد ليلاً<sup>(١)</sup>... إلى آخر ما تفصله مصادر هذا العصر .

وإلى جانب النقباء وُجد قراء وأئمة ومؤدبو أطفال وخزائن كتب ، لأن الزوايا كانت معاهد للعلم الشائع في هذا العصر ، حتى لقد كان بعض شيوخ الطريق يفاخرون بأن العلم والحكمة إنما تلتبس في رحاب زواياهم ، وضمت الزوايا - مع هؤلاء - « بلانات » يقمن برعاية الزوجات ، وقضاء ما ظهر من حاجتهن وما بطن ، وزودت بالحمامات والمدافن والمراحيض والخلوات والآبار والمظاهر ونحو هذا مما سنعود إلى بيانه عند الحديث على زاوية الشعراني .

وكان لشيوخ الطريق مكان ملحوظ موموق بين الناس ، وقد بدت آيات الصدارة عندهم فيما توافر لهم من مظاهر النفوذ ، فاقتسموا أرض مصر وباشروا سلطتهم في مناطقهم حكما روحيين ، وكانت هذه المناطق تتمشى في السعة والضيق ، طرديا مع سمعة الشيوخ ونفوذهم ، واتساع قدرتهم على اجتذاب الناس والاستبداد بهوهم .

أما تهافت المجاورين على الإقامة في زوايا الصوفية ، فرده إلى عوامل ، أكبرها خطرا شيوع التصوف ردا على فساد الحياة ، وتعذر احتمال مؤثراتها ، والعجز عن مواجهة مظالمها ، وبلى هذا ما يترتب على هذه الحياة من وجوه

(١) السنودى في تحفة السالكين ص ١٢٧ - ١٣٥ .

النفع الدنيوى ، فهى تفهيم من متاعب العمل ، وتوفر لهم أسباب الراحة ، وترد عنهم عادية الجنود الذين كانوا يعيشون فى الأرض فسادا ، وتقيمهم مظالم الجبابة وأعوانهم ، وأين حياة أرباب الطريق الخلو من التبعات ، من حياة الفلاح الذى كان إذا أقعده العجز عن دفع الضرائب ، انتزعت أرضه وعذب « بالمقارع والكسارات وعصر الرأس وإمرار الطونس على ظهره ، وإدخال البوص بين الظفر واللحم ، والتعليق ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس<sup>(١)</sup> ». ؟. وليس غريبا أن تكثر زوايا الصوفية من المسلمين فى مصر ، فقد حفقت صحاريها وكهوفها ومغاراتها برهبان النصارى منذ زمان طويل مديد .  
وفى هذا الجوع عاش الشعراى ، أكبر من حملت أرض مصر فى عصره من أهل العلم وأرباب الطريق ، فلنشرع فى الترجمة له .

---

(١) المليجى فى المناقب الكبرى ص ١٣١ .

## الباب الأول

سيرة الشيخ إمامنا وصوفينا

أشرنا في الصفحة السابقة إلى روح العصر الذي عاش فيه الشعراني ،  
وتتبعناها خلال التصوف داخل الزوايا وخارجها ، ما صدق منه وما كان  
ادعاء . ونريد في هذا الباب أن نعرض شيئاً من سيرة هذا الرجل منذ نشأ  
طفلاً حتى استقام إماماً لأهل زمانه ، وأن نتبعه في تجاربه الروحية التي عاش  
فيها ، منذ تدرج في مراتب العلم الشائع في عصره ، حتى ترقى في مقامات  
السلوك إلى ربه ، معنيين بالحديث عن حياة المريدين في زاويته ، لإيضاح  
جانباها الروحي الوضئ ، أو الكشف عن وجهها المادى الذميم ، حتى إذا  
نصّونا ما ران على حياته من غموض ، عقبنا في الباب الثاني بشرح علاقاته  
مع معاصريه ، عسى أن يضيء هذا ما بقي غامضاً من سيرته .

## الفصل الأول

### سيرة

ينحدر الشعرائي عن قبيلة بنى زُغلة من عرب المغرب ، يتصل نسبها  
بالإمام علي ابن أبي طالب ، وكان جده أبو عبد الله أحمد الزُّغلي ، سلطان  
تلمسان المغرب وما والاها ، وقد تصوَّف أحد أبنائه - موسى أبو العمران -  
وآثر طريق الله على السلطنة ومجدها ، وسلك على يد الإمام أبي مدين التلمساني  
بعد أن نضا عنه نسبه ومُلِكه وشرفه ، فأرسله هذا الإمام فيمن أرسل من  
أتباعه ، لتربية المريدين في صعيد مصر ، فمات هناك عام ٧٠٧ هـ ، ثم هاجر  
حفيدة « أحمد » إلى ساقية أبي شعرة (وهي قرية بالمنوفية تجاه النيل) وشاعت  
عنه الولاية رغم أميته ، ومات ( عام ٨٢٨ هـ ) ودفن بمهجره ، وكان حفيدة  
أحمد - والد عبد الوهاب الذي نُوِّرخ له في هذا الكتاب ، على حظ من العلم  
الذي شاع في عصره ، وقد رحل إلى مصر ومعه ابنه عبد الوهاب ، وطلب  
إلى جلال الدين السيوطي أن يجيز ابنه ، فأجازه بكافة مروياته ، وهو في

غضون العاشرة من عمره ، وألبسه خرقة الصوفية في روضة المقياس بالقاهرة وهو لا يزال صبيا . ومات أحمد عام سبع وتسعمائة للهجرة ، ودفن مع والده في زاويته بساقية أبي شعره .

وكان ابنه عبدالوهاب لا يزال صغيرا ، فكفله أخوه عبدالقادر + ٩٥٦ وكان متصوفا ورعا منصرفا عن دنياه ، مشغولا بخدمة المعوزين والمحتاجين . أما عن ميلاد الشعراني ، فقد سبق مطلع القرن العاشر - للهجرة - بعامين<sup>(١)</sup> ، وكان مولده في قلقشندة - قرية جده لأنه ، ثم انتقل بعد أر بعين يوما إلى قرية أبيه ، وإليها انتسب ، فسُمي بالشعراني أو الشعراوي كما ورد في بعض آثاره<sup>(٢)</sup> .

وقد ذهب المستشرقان « كريمر » و « نيكلسون » إلى أنه كان يحترف الحياكة ، ولعل الأصح ما قاله المستشرق « فولرز » من أن حياته كانت زاخرة بالعبادة حافلة بالتعليم ، فلم يكن من الميسور أن يجد وقتا يحترف فيه عملا .

---

(١) الراجح أنه ولد في ٢٧ رمضان ٧٩٨ هـ كما جاء في المناوي وعلى مبارك والمستشرق شاخت Schacht ، ولا صحة لما جاء في تكميل النور السافر أو في المناقب الكبرى وغيرها .  
(٢) عرض لمناقشة هذا المستشرقون « فولرز » Vollers في مجلة الدراسات الشرقية ZDMG. ج ٤٤ ص ٣٩٠ و « فلوجل » Flügel في ج ٢٠ ص ٩ ، ج ٢١ ص ٢٧١ و « كريمر » Kremer في مجلة JAP. ج ١١ من المجلد السادس ص ٢٥٣ والمناقب ص ٣٨ - ٣٩ .

وقد غادر قريته إلى القاهرة في مطلع العام الحادى عشر من ذلك القرن ،  
وفيهما أصاب فيضا من العلم ، على كثرة من شيوخ القاهرة في صدر شبابه ،  
وأقام بالجامع الأزهر ملازما شيخه « على الشونى » نحو خمس سنين ، ثم غادر  
الأزهر بمشورة شيخه إلى الجامع العمري عام ٩١٩ هـ وليث به سبعة عشر عاما ،  
تحول بعدها إلى مدرسة أم خوَّند ، بخط كانور الأخشيدي ، وفيها استطارت  
شهرته ، وثار حقد خصومه وحساده .

وفى خلال هذه المدة ، اتصل بأساتذة العلم فى القاهرة يومذاك ، وكان  
منهم جلال الدين السيوطى وزكريا الأنصارى ، وناصر الدين اللقانى ،  
والسمنودى ومن إليهم ، ممن استغرق ذكر أسماهم بضع صفحات من القطع  
الكبير . وقد روى عن نفسه أنه حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، والتزم  
القيام بالصلاة وهو ابن ثمان ، وأنه كان يتلو القرآن كله فى الركعة الواحدة  
قبل أن يبلغ سن الرشد ، وأنه كان معصوما من آفات عصره .. إلى آخر  
ما يرويه عن نفسه ، مما يبدو إغراقا لا يساغ فى رأى العقل .

وقد كان الشعرا فى واسع الإلمام بعلوم عصره ، محيطا بما وقع له من كتب  
البارزين من أهلها ، قدامى ومعاصرين ، وقد عرض لذكر ما درسه على  
أيدي شيوخه من مختلف المصنفات فى شتى العاوم ، وأبان عن الكتب التى  
درسها بنفسه ، وراجع العلماء فيها أشكال عليه منها ، فى التصوف والفقهاء

والتفسير والحديث والسيرة واللغة والقواعد والأصول وغيرها<sup>(١)</sup>، وصرح مفاخره بأنه لا يتصور أحدا من أهل عصره قد أحاط بها علما، وأن أحد الحسدة قد كتب سؤالا يتصل بفقرات وردت في كتاب اليهود، وقدمه إلى شيخ الإسلام - الفتوحى الحنبلى - فامتنع عن التعليق عليه، بحجة أن الشعرانى قد قرأ من الكتب ما لا يعرف له اسما، وأنه لو ادعى تأليفها ما وجد في مصر منازعا، وقد قيل إنه خلف ثلاثمائة كتاب، تناولت الطب والنحو والتفسير والفقه والتصوف وغيره، وقد استغرق بعضها خمسة مجلدات، ووقع الكثير منها في مجلدين كبيرين، ولكن «على مبارك» يقرر بأن مؤلفاته قد بلغت السبعين كتابا، وليس هذا ببعيد، فإن له الآن في دار الكتب الملكية بالقاهرة نحو خمسين سفرا، أكثرها لا يزال مخطوطا، وقد أحصى له «بروكلمان» Brockelmann أكثر من ستين كتابا، توجد اليوم نسخ منها - مخطوطة ومطبوعة - في دور الكتب في أرجاء العالم<sup>(٢)</sup> وقد تضمنت من فيض المعلومات ما يشهد بقوة ذاكرته، وقدرته على استيعاب ما يقرأ وما يسمع.

وقد استقى الشعرانى التصوف عن خيرة من عُرف في هذا العهد من أربابه، ونزع إلى مزاولته قبل أن يسلك على أرباب الطريق، فراض جسمه

(١) فصلت المناقب الكبرى في بيانها من ٤١ - ٥٢

(٢) بروكلمان ج ٢ ص ٣٣٥ - ٨ والملحق ج ٢ ص ٤٦٤ - ٦

على احتمال المسكاره ، وعانى في كبح شهواته وردّ رغباته حتى عن الحلال  
المباح ، وأسرف في ذكر الله حتى علق في سقف خلوته جبلا يطوق عنقه متى  
جلس - منذ العشاء حتى مطلع الفجر مدة بضع سنين - ليأمن سنوات النوم  
وغفلاته ، فإن غالبه النعاس ، نزل الماء البارد بثيابه ، أو ضرب بالسياط  
أفخاذه<sup>(١)</sup> .

ولزم مظاهر الزهد في مأكله وملبسه واتصاله بالناس - علت مرا كرم  
أو تضاعل شأنهم ، واشتد في محاسبة نفسه ، حتى ساوره الظن بأنه افتقد  
الحلال ، فطعم التراب شهرين ، لذ فيهما مذاقه حتى خاله لحما وسمنا ولينا .. !  
وتجنب مواطن الظنة والرّيب في مأكله ، وبالغ في الحرمان حتى زهد فيما  
أباحه الشرع من ألوان المتع ، وتحامى الاقتراب من أملاك الظلمة من الولاة  
والأمراء ومن إليهم ، فلما وصل إلى هذا المقام ، خال في نفسه القدرة على  
التمييز بين الحلال والحرام بمجرد النظر .. ! فأخذ يهيم على وجهه ملتصقا بالمهجور  
من المساجد والخرب من الأماكن ، يقر فيها مطيلا صلواته مكثرا من ذكر الله ،  
يتحرى الصيام ويتوخى مجاهدة النفس وقع شهواتها ، ويتحامى النوم  
ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، حتى ضعفت بشريته ، وقويت روحانيته ، وأحس  
وكأنه يبدو خفيفا إذا ارتقى صاعدا ، ثقيلا إذا هبط نازلا .. !

(١) انزان الكبرى ج ١ ص ١٨ ولطائف المتن ج ١ ص ٤٧ - ٨ وعلى مبارك ج ٦  
ص ٤٣ وتكميل النور السافر ص ٦٦٠ وطبقات الشاذلية ص ١٣٩ . . . الخ



راض الشعراني نفسه على مكاره الطريق وهو يقيم في جامع الغمري ،  
فطاب ذكره وذاع في الناس اسمه ، وكان شيخه « على الشونى » قد أذن له  
في أن يرتب بهذا المسجد مجلسا للصلاة والسلام على رسول الله ، ولكن  
أولاد الغمري - فيما يرى على مبارك - قد نفسوا عليه المكانة للمحوظة التي  
أصابتها بين الناس ، فأثر أن يغادر مسجدهم ، وهذا تعليل لانجد فيا صادفنا  
من آثار الشعراني ما يبهره .

وقيل إن حاله قد اشتد به ذات يوم ، فصاح باسم « الله » صيحة ارتجت  
لها جدران المسجد ، وكاد يتصدع منها بيت الشيخ أبى الحسن الغمري  
+ ٩٣٩ هـ ، وكان على كذب منه ، فاستفسر هذا عن صاحب الصوت حتى  
إذا عرفه ، هم بالارتحال إلى بيت آخر ، ولكن الشعراني قد سبقه إلى الرحيل  
تاركا وراءه كل ما يملك ، وولى وجهه شطر « بين السورين » حتى حظّ رحاله  
بمدرسة « أم خوند » ، وأقام تجاهها ستة أيام ، خيّل إليه بعدها أن رسول الله  
قد أذن له في الإقامة بها ، فدخلها مع أسرته ، ولبثوا بها سبع سنين .

ولعل الأصح أن يقال إن انتقاله إليها كان مردّه إلى غلبة خصومه الذين  
آذوه بجامع الغمري ، ونكّلوا بأتباعه ومرأديه ، حتى لم يبق معه غير الغرباء  
منهم ، إذ أنبأه شيخ صالح ورع ، أنه رأى في منامه أن الله يأذن له في الانتقال  
إلى هذه المدرسة ، ولكنه آثر أن يتريث ، فاحتك خصومه بجماعته ،

ووقع بين الفريقين شجار عنيف ، فسارع إلى الارتحال ، اتقاء لكل شر .  
وفي أثناء مقامه بهذه المدرسة ، غضب أحد نواب السلطان سليم ، على  
القاضي محيي الدين عبد القادر الأرزبكي ، فاختم القاضي مدة أشهرٍ فيها خصمه  
النداء في شوارع مصر بإهدار دمه ، وإغراء قاتله بجائزة ثمينة ، وضاق القاضي  
بسجنه ، فانطلق إلى الشعراني في مدرسته ، وشكى إليه أمره ، وتعهد بإقامة  
مسجد لله إن سلمت حياته من شر غريمه ، فزوده الشعراني - فيما يقال -  
بشظية كانت ملقاة على الأرض ، وأشار عليه بأن يلقي بها الباشا ولا يخشى  
سوءاً ..! فتردد القاضي لأن جميع من التمس عندهم التوسط في العفو عنه ،  
من أكابر الدولة وأهل الصدارة فيها ، رفضوا الاتصال بغريمه ، وصرخوا بخوفهم  
من غدره ، وإشفاقهم على حياتهم من شره ، ثم استجاب للمشورة ومضى للقاء  
الباشا ، حتى إذا دنا منه ، ألقى الشظية أمامه ، فخف الباشا للقائه والاحتفاء  
بمقدمه ، وأعادته إلى منصبه ، وأشهر النداء في شوارع مصر بالعفو عنه وعدم  
التعرض له بسوء ..!!

وقيل في تفسير هذا الموقف - ولعله الأصح - إن السلطان سليم قد  
غضب على هذا القاضي ، ثم تسامح - أثناء مقامه بمصر - بنياً هذا الولي  
الصغير « الشعراني » ، فخفف لزيارته ، وسأله حاجته ، فالتمس عنده العفو عن  
هذا القاضي ، فأجابه إلى مطلبه - بل يقول على مبارك - ويردد قوله بعض

المستشرقين - إن هذا القاضي قد أساء استغلال وظيفته ، واغتصب عقاراً لم يكن له ، ثم خشي بعد الفتح العثماني انكشاف أمره ، فوقفه على وجوه البر في زاوية الشعرائي وذريته معا - وليس في هذا الاحتمال ما يدعو إلى رفضه - وابتاع القاضي مكاناً خراباً يقيم فيه المسجد الذي وعد به ، ولكن أحد الأمراء قد اغتصب الأرض معتزماً أن يقيم عليها بيتاً له ، فحذره أحد أرباب الأحوال من سوء ما ينوي ، ولكنه ركب رأسه ، وأعلن لخواص أصحابه أن هذا الناصح مجذوب ، وأن الاهتمام بحديثه صغار لا يليق بالأمراء ، فدفع ثمن هذا الاستخفاف غالياً ، إذ مات بعد بضعة أيام ، فابتاع القاضي الأرض وشاد عليها مسجد الشعرائي ، الذي لا يزال قائماً حتى يومنا الراهن ، وفيه كانت زاويته التي صدر عنها مجده وفاضت شهرته .

وقد حفر الكثير من الآبار لمطهرة هذه الزاوية ، وعلى غير جدوى ما فعل ، وكان يشاع عن شيخه - نور الدين الشوني - أنه يتصل بالنبي إبان يقظته . . . ! فطلب إليه الشعرائي أن يستشيريه في أصلح مكان تحفر فيه هذه البئر ، فأشار عليه بعد قليل بحفرها - بأذن الرسول - في مكان دانٍ من ردهة بيته ، فكان ماؤها عذباً سلسبيلاً ، حتى أشيع اتصالها بزمزم . . . ! وقيل إن أحد المریدین كان قد سافر إلى مكة ، فسقطت منه في بئر زمزم طاسة من نحاس ، فأخرجت بعينها من بئر الزاوية . . . ! وتسامع الناس

بهذا النبأ ، ففضوا إليها تيمناً بماؤها ، وسارع إليها المرضى للاستشفاء .

ولا تزال البئر قائمة بالمسجد إلى يومنا الحاضر ، وإن كانوا قد استغنوا عنها باستخراج الماء باستعمال « مضخة » ، وعلى كئيب من البئر غرفة يستحم فيها السيدات بهذا الماء تيمناً ، وأما مدرسة أم خوند فهي الآن دار للتعليم الأولى ، وأما جامع العمري فقد هُجر منذ زمان ، ثم تحول في الحرب التي تضع في هذه الأيام أوزارها ، إلى محباً يتقى فيه أهل الحى شر الغارات الجوية . . . ! كان الشعراني منذ بضعة قرون ينزوي فيه طلباً لعبادة الله وإلتماساً لمرضاته وغفرانه ، فاخْتبأ فيه الناس في السنين الأخيرة طلباً للأمان ، واتقاء لشر الطليان والألمان . . . ! وأما المسجد فلا يزال على ما وصفه على مبارك في خطظه <sup>(١)</sup> ، ويقوم ضريح الشعراني عن يسار القبلة ، وعن يمينها يقوم ضريح شيخه على الشونى ، ولا تزال حضرة السيدات تقام بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع . . . !

أما السبب في إقامة ضريحه ، فذلك أن أمين الشون ، الأمير حسن بك صنجق ، قد أحبه ، حتى كان لا يفارقه ، فعتب عليه الشعراني ذلك ، لأن فيه استخفافاً بمصالح رعيته ، فضى الأمير إلى داره ، وأعتق عبيده وحبس أملاكه ، وتقا على وجوه الخير ، واستبقى من ذلك كله رخام بيت من بيوته ، ومبلغاً من

المال يكفي لإقامة ضريح ومزار للشعراني، وأقبل على شيخه فقيراً متجرداً  
سالكا على يديه حتى أضحي من أصحابه - وأصيب الشعراني بالفسالج،  
وأحس بأن ساعته قد دنت، فطلب إلى الأمير أن يقيم له الضريح الذي  
اعتزم إقامته، ولما انتصب القبر وارتفعت المنامة، انعقد لسانه وجمدت  
أوصاله، واستوفى الشعراني أنفاسه، وكان هذا في الثاني عشر من جمادى الأولى  
سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة للهجرة، واشترك في إقامة الصلاة على جثمانه  
في الجامع الأزهر، الأمراء ومشايخ العرب والقضاة والفقهاء والتجار ومن  
إلهم، ثم دفن بجوار زاويته في المشهد السالف الذكر ( في خط بين  
الصورين )<sup>(١)</sup>.

ولكن سيرة الشعراني تفقد جانبها المشرق الوضاء، إن خلت من  
الحديث عن زاويته :

(٢) ترجم لنفسه في لطائف المتن، ووردت سيرته في طبقات المناوي الكبرى ج ٢  
ص + ٤٩٥ - ٨ وتكميل النور السافر ص ٦٥٨ وما بعدها وعلى مبارك ج ١٤  
ص ١٠٩ - ١١٣ وشذرات الذهب ص ٤٩٥ وما بعدها والمناقب الكبرى ص ١٣٨ -  
١٦٢ وطبقات الشاذلية ص ١٣٨ - ١٤٢ وللمستشرقين : « ثولرز » في دائرة معارف  
الدين والأخلاق مادة Ash - Sha' rani و Dietrich في مجلة الدراسات الشرقية ج ٦٣  
ص ٨١ و Dr Perron في ترجمته للميزان الصغرى . . الخ وبشأن مجده فارن  
Description de L' Egypte وكذلك Baedeker .

## الفصل الثاني

### زاوية الشعرائى

#### وصف الحياة فيها :

أقامها القاضي الأرزىكى - على ما عرفنا من قبل - رباطاً للعباد ،  
ومدرسة لطلب العلم ، وزاوية للمتجهدين ومسجداً للصلاة وتكوية للفقراء ،  
وحبس عليها - قبل إقامتها - الأوقاف ، وأجرى عليها الأرزاق ، وعين لها  
من تحتاج إليه من مؤذنين وقراء وأئمة وخطباء ، وكانت سمعة الشعرائى قد  
استطارت ، حتى تسمع بها أهل اليسار ، فخصوه بوفرة من عنايتهم ، أوقافاً  
يحبسونها ، وعطايا وهدايا يقدمونها سرّاً وجهراً ، واجتذبت هذه السمعة  
الطائرة آلاف المريدين والمعجبين ، استقر منهم فى رحاب الزاوية مائتين  
- بينهم تسعة وعشرون كفيفاً - أقام المتزوجون منهم مع زوجاتهم وأولادهم  
عاطلين عن كل عمل مدر للمال ، طاعمين كاسين ممتعين لا يهتمون من نفقات

عيشهم كثيراً ولا قليلاً ، أعد لهم من الخبز في كل صباح أردباً وثلاث أردب ، يقوم على تهيئته عشرون فرداً ، واخترن لهم في كل عام من العسل النحل عشرة قناطير ، ومن عسل القصب عشريين قنطاراً ، ومن القمح ثلاثمائة أردب ؛ ومن الفول في فصل الشتاء أربعين أردباً ، ومن الكشك سبعة أرداب ، ومن الأرز سبعة أخرى ، ومن الباسلاء والعدس خمسة وعشرين أردباً . . ! فإذا أقبل العيد خصص للكعك خمسة أرداب ، فوق ما يهدى إليه من كعك الريف ، وهو يعادل الثلاثة أرداب ، ثم يتناع لجاوريه - مع هذا كله من اللوز والجوز والبندق والخروب والتمر والزبيب والتين الجاف ، ما يعادل خمسة قناطير ، ويودع خزائنه من البطيخ نحو ألفين ، تكفي مجاوريه وضيوفه وهداياهم إلى المرضى حتى يظهر موسم البطيخ الجديد .

وقد نهض - مع هذا - بتزويج أربعين مجاوراً من مريديه ، قام عنهم بسداد المهر ونفقات الزواج ، وحرص على تزويد زوجاتهم ، باللبان الشامى والحجازى والشمع والخضاب والزينة والخيط والثوية والاسفيداج ونحوه ، وسد ما ظهر من رغباتهن وما استقر ، وقام بإيفاد أفواج من مريديه للحج على نفقته ، مزودين بكل ما ينتظر أن يحتاجوا إليه ، ومع هذا كله لا يفيض فيض الخيرات في زاويته ، فيكرم من يفد لزيارته من الضيوف - وقد كانوا يقدرون

في اليوم الواحد بالسبعين ضيفاً ، ويقوم بتزويد العلماء والموزين ومشايخ  
البلاد في مصر وغيرها بالكساء والغذاء<sup>(١)</sup> .. !

### موقفه من عطايا المحسنين على زاويته :

وهكذا بدأ الشعراني - على طريقة أجداده منذ تحلوا عن السلطنة  
وجاهها - معوزاً معدماً ، لا يملك ثمن كراسة يكتب فيها تعليقاته على ما يقرأ ،  
ولا يجد صدق زوج يبنى بها<sup>(٢)</sup> ، فإذا عرض عليه الأمراء وأهل اليسار الذهب  
والفضة ، أشاح عنهم بوجهه ، وردّ هداياهم في غير تردد<sup>(٣)</sup> .. قدم إليه الدفتردار  
أحمد مبلغاً من المال جهراً ، فأباه الشعراني ، فبعث به مع أحد مماليكه وأوصاه  
بتقديمه إلى الشيخ خفيةً عن الأنظار ، فقال الشعراني لهذا المملوك : كيف أقبله  
منك وقد رفضته من مولاك .. ! - فانطلق المملوك إلى سيده ، يتحدث مشدوها  
عن زهد هذا الرجل الغريب في فقراء مصر<sup>(٤)</sup> . وقد استأذنه الأمير جانم

(١) لطائف المتن ج ١ ص ١٨ و ج ٢ ص ١١٦ - ١١٨ و ١٢٠ و ١٣٢ و ١٣٦  
و المناقب الكبرى ص ٧٢ و ٧٨ و ١٤٠ ولكن طبقات الشاذلية ص ١٤٠ وتكميل  
النور السافر ص ٦٦٣ و طبقات المناوي الكبرى ص ٤٩٦ تتفق في تحديد عدد المجاورين  
بمائة ، ولعل عددهم كان كذلك في وقت ما .

(٢) المناقب الكبرى ص ٤٢ و ١٣٩ .

(٣) لطائف المتن ج ١ ص ٤٧ و المناقب ص ٨٢ و ٨٥ - ٨٦ و ١٠٥ .

(٤) المناقب ص ١١٥ .



الجزاوى فى أن يلتمس عند السلطان لزويته « مسموحا » فأبى الشعرانى إباءً شديداً ، فعرض عليه أن يقدم إليه كل صباح مبلغاً من « الجوالى » ، فأبى معتذراً بأن هذه الضريبة مخصصة لمن يقوم بالتجاريد<sup>(١)</sup> وقدم إليه المباشرون الذهب والفضة فى جامع العمري ، فألقاها فى صحن المسجد على مرأى منهم ، حتى تهافت لالتقاطها المجاورون<sup>(٢)</sup> . . . ! وقد فسر مسلكه بتساوى الذهب والتراب فى عينه ، معللاً خشونته ، بأن قبوله للهدايا اعتراف منه بولايته ، وما هكذا يكون الفقراء<sup>(٣)</sup> ..

كان هذا فى صدر حياته ، فلما ازدحمت بالمجاورين زوايته ، وثقلت التبعات على كاهله ، اضطر إلى قبول ما يجس من أوقاف وما يقدم من عطايا ، فمكثه هذا من أن يتكفل بالإنفاق على مريديه ثلاثين عاماً ، دون أن يزاول عملاً يدر عليه مالا .

وقد تثير هذه البيانات عند بعض القراء أسئلة ، لا يجدون لها جواباً مقنعاً ، إلا على حساب سمعته . . . ! قد لا يدرون لماذا رفض المال الذى قدمه إليه المؤمنون به من أهل اليسار ، ولم يقبله ويتولى توزيعه على المعوزين ممن يرضن عليهم هؤلاء بالصدقات . . . ؟ وإذا افترضنا أنه لم يقبل

(١) لطائف المتن ج ٢ ص ١١٧ .

(٢) لطائف المتن ج ١ ص ٤٧ .

(٣) المناقب ص ٨٢ و ١١٨ ولطائف المتن ج ١ ص ٥ - ٦ و ٦٦ .

العطايا ونحوها إلا بعد ازدحام زاويته بالمجاورين ، وشعوره بتبعية الإنفاق عليهم ، فلماذا قبل أوقافا تحبس عليه وعلى ذريته من بعده، مامد الله في عمرها، مع أن بعض أصحاب هذه الأوقاف، قد أباحوا له تعديل موادها على النحو الذي يريد<sup>(١)</sup> . . . . ؟ ورغم أنه يلزم شيوخ الطريق عند توزيع العطايا على مريديهم، ألا يبقوا منها شيئاً لأنفسهم ومن يعولون ، ليرتفعوا بهذا عن مجاورتهم في مراتب الزهد في الدنيا والإعراض عن مباحجها . . ! وحسبنا أن نقول رداً على هذا، إن الشعرائي - بالناعا ما بلغت ولايته - إنسان ، وحسبه أن يكون كذلك ، لتبدو تصرفاته مسابرة للطبيعة البشرية ، في نزعاتها وميوها الفطرية والمكتسبة على السواء .

على أن في آثار الشعرائي ما يبدو دحضا للسؤال الأول، فهو لا يعترف بأن المجاورين في زاويته يعيشون على ما يجود به أهل اليسار من عطايا وأوقاف . . . . ! ويؤكد في صراحة سافرة أنه إنما يستمد هذا الفيض من الخيرات مما يفتح الله<sup>(٢)</sup> ، ولا يدخل في هذا الفتح الألهي ما يفيض به المحسنون من أوقاف وأرزاق . . . ! بل يراها مدعاة لإنلاف المجاورين ، وإفساد يُمن الله وبركته ، ومجلبة للاستدانة والجهر بالشكوى ، فوق أنها تعرض أهل

(٤) وقفية القاضي محي الدين عبد القادر وقد نشرناها في بحث لنا عن التصوف في مصر لإبان الحكم العثماني (كان رسالة للماجستير وفي عزمنا نشرها بعد) .

(٥) فارقن الطبقات الوسطى ص ٢٠٥ ولطائف المتن ج ١ ص ١٨ و ج ٢ ص ١٢٩ و ١٢١ والطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٧ .

الطريق للرياء والنفاق، والذلة أمام هؤلاء المحسنين .. ! وحسب أهل الطريق إخلاصهم في عبادة الله وانقطاعهم لذكركه ، فإن هذا كفيلاً بأن يهيء لهم الرزق من حيث لا يحتسبون<sup>(١)</sup> ، وقد يسر الله لصفوة الفقراء من أهل التصوف ، سبيل الاتصال بحضرته ، والاستعانة به على حاجاتهم رأساً من غير وساطة ، وقد أشرنا إلى ما يملكه الواصلون من أهل السلوك ، من وجوه القدرة في مجال الجاه والعلم وغيره ، مما يتنافى مع أبسط قوانين الطبيعة ، فليس غريباً بعد هذا أن يكون للقدرة الإلهية « صيرفيا » يسد مطالب أهل الكشف من الفقراء ، ويمكنهم من الأنفاق من الغيب بفضل الله<sup>(٢)</sup> .. !

هذا منطق الشعرائى فى الكثير من مؤلفاته ، ولعلنا لا نتجنى إن رددنا هذا الفتح إلى ما يقدم إليه من عطايا المحسنين فى خفاء عن الناس ، وهذه ظاهرة تؤيدها تقاليد الأسلام ، وتبررها ثقة المحسنين فى شيوخ الطريق ، وبهذا يستقيم تصويره مع منطق العقل .

### موازنة بين الحياة فى الزاوية وخارجها :

وإن الإنسان ليعجب - حين يطالع على وصف الحياة فى الزاوية - من هؤلاء الزهدة الذين كانوا ينعمون بما لا يتهيأ لمعاصريهم من أهل الدنيا ... !

(١) البحر المورود ص ٣٤٦ والعبود المحمدية ص ٣٠٦ وقارن لطائف المنى ج ٢

ص ١١٧ و ١٢١ فى زاوية المنزلاوى .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٥

والشعراني الذي يكثر من وصف المجتمع المصري في عصره ، يعرض للضنك الذي كان يعانيه معاصروه ، فيمكننا بهذا من عقد موازنه بين الفاقة عند عامة الناس ، والترف عند الذين وقفوا حياتهم على الحرمان .

التمس الشعراني العذر للتاجر الذي يهمل في رعاية الفقراء من أهل التصوف ، بالكساد الذي يصيب تجارته ، حتى ليقضى أياماً ثلاثة عاطلاً عن كل عمل ، مع حاجته إلى قوت نفسه ومن يعول ، وأجر بيته وحانوته ، وعوائد الظلمة من الخفراء ورسد المحتسب « ومشد التراب ومشد الفلوس والذهب في الأسواق » .

ويعقب بالتماس هذا العذر للفلاح كذلك ، لأنه يقضى حياته في ضنك وشقاء ، ويكلفه قصاد الكشاف والعمال والعرب فوق ما يطيق ، فيقدم إليهم كل ما يملك من لبن وسمن ودجاج وغنم ، حتى يبيع غزل امرأته من أجلهم ، ثم « يحملونه عاطل البلد » فوق الخراج آخر كل عام ، « ويزمروا على رزقه في الجرن ، فيطلب منه طحيناً فلا يمكنوه - يمكنونه - من ذلك ، فياليثهم جعلوه كغلمان الأميين الذين لهم عادة<sup>(١)</sup> ... » .

فأين هذا بالله من عسل النحل والبطيخ واللوز والجوز ونحوه مما عرفنا ، فوق راحة البال واطمئنان النفس والخلو من كل تبعه ..؟ أليس هذا عاملاً له خطاره في تهاافت المجاورين على العيش في زاويته ..؟

(١) العبود المحمدية ص ١٢٥ .

## السر في التهافت على زاويته :

وما أظن في هذا التفسير شيئاً من التجنى ، فقد اعترف الشعرائي في طبقاته الكبرى والوسطى معا ، بأن زاوية المتبولى كانت تضم مائة مجاور ، فإذا اشتد الغلاء واختفت آيات الرخاء ، ارتفع العدد إلى نصف ألف مجاور<sup>(١)</sup> !.. وقد آلت زاوية الشعرائي بعده إلى ابنه عبد الرحمن ، وكان ممسكاً مقترأ ، فنازعه عليها ابن عمه عبد اللطيف ، وكان بجوادا كريما ، فانتصر له الفقراء وخذلوا خصمه ، ولكن المنية عاجلته ، فانفرد بالزاوية ابن صاحبها ، ولكن تقديره قد أدى إلى تدهور أمرها ، حتى كان مجلس يوم الجمعة لا يضم أكثر من اثنين أو ثلاثة ، يعقدونه في مطلع الليل ، ثم لا يلبث النعاس أن يغلبهم فيما يقول المناوى والحجبي والغزوي ومن إليهم من كتاب هذا العصر ، فلما تولى أمرها ابنه السيد يحيى + ١٠٦٥ جرى على نهج جده في البذل والإيثار ، وهياً لجواره به أسباب النعيم ، فطعموا صنوف الفواكه منذ بدء ظهورها ، ونعموا بالشمس والخور والكثيرى والتفاح والنبق والرمان والعنب والبطيخ والقثاء والخيار وغيره ، فإذا ظهر موسم الملوخية سارع إلى طهيها لهم مزودة بالأوز مصحوبة بالكنافة ، وأرسل منها مع اللبن والبيض وغيره إلى بيوت

(١) الطبقات الوسطى + ٢١٣ والطبقات الكبرى ج ٢ ص ٧٥ .

مريديه ، وبعث لأهل المجاورين في ليالى رمضان بالطعام الشهى اللذيذ ،  
فإذا أقبل العيد حرص على أن يكسو خدام الزاوية كساءً فاخراً ... فسرعان  
ما استردت الزاوية مجدها الذى كان لها أيام عاهلها الكبير<sup>(١)</sup> ! ..

وقد تثير هذه البيانات شيئاً من الدهشة ، لأن التصوف لا يستقيم بغير  
الزهد والحرمان ، فحسب الشيخ من عطايا المحسنين ما يكفي مجاوريه غذاء  
وكساء ، وتوزيع سائرهما على المعوزين خارج زاويته أخرى بالاتباع ، ولكن  
الشعرانى قد صرح - فيما عرفنا - بأنه كان لا يكتفى بهبات المحسنين من ألوان  
الترف ، فيبتاع لمجاوريه اللوز والجوز والزيب والتين ونحوه ، وهذا ما لا يستقيم  
مع أبسط قواعد الحرمان ، ولكن ألا يجوز أن نقول - إنصافاً للشعرانى وغيره  
من شيوخ الطريق - إنهم تحمروا توفير أسباب الترف في زواياهم ، إغراءً  
للمريدين بالإقامة في رحابها ، حتى إذا عاشوا في جوها ، راضوا نفوسهم على  
احتمال مكاره العيش ومتاعب السلوك ، ومجاهدة النفس والترقى في المقامات  
حتى يبلغوا مراتب الكمّل من أهل الكشف ..؟ إن صح هذا كان الشعرانى  
أبعد من ناقديه نظراً وأحد ذكاء ، وأعرف ببواطن النفوس وأقدر على مداواة  
أمراضها . وفي أى شرعة من شرائع العقل يحرم على شيخ ينهض بمداواة

---

(١) طبقات المناوى الكبرى ٤٩٦ و + ٤٩٧ وشذرات الذهب ج ٨ نقل عن  
المناوى - وعلى مبارك ج ١٤ ص ١١٣ والمحجى في خلاصة الأثر ج ٢ ص ٣٦٤ وتكميل  
النور السافر ص ٦٦٥ .

النفوس ، أن يغرى المرضى من أصحابها بمتابعته ، حتى إذا اطمأنوا إليه ، وآمنوا به ، أخذ يضطلع بعلاج أمراضهم ، ويرقى بهم إلى مراتب الكمال ..؟ إن هذا شبيه بمسلك الدين في تحريم بعض ما هفت إليه نفوس العرب ، ومن هنا جاء الأمر بتحريم الخمر على مراحل ...

على أن الكثير مما فاض عن حاجة المجاورين في زاويته ، قد أصاب منه المعدمون والمعوزون من أهل مصر ومكة وغيرها ، فكانت زاويته مركزا يفيض بالخيرات والنعمة ...

### الحياة العامية والروحية في زاويته :

فإذا تجاوزنا الحديث عن مظاهر الحياة المادية في زاويته ، وعرضنا للحياة الروحية والعامية عند المقيمين فيها ، كشفنا عن وجه آخر من وجوهها الوضيئة المشرقة ، فقد كان الشعراني أوسع أهل عصره علما وأرسخهم في التصوف قدما ، فكان طبيعيا ما تحدث عنه مؤرخوه من شهرة زاويته ، بمزاولة العلم المعروف في عصره ، ومباشرة العبادات على اختلاف صورها ، وقد فخر الشعراني بأن الذين يتقرءون القرآن والحديث في زاويته ، يواصلون القراءة ليلا ونهارا ، فلا يفرغ قارئ في الحديث حتى يشرع غيره في القراءه في التصوف ، ولا ينتهي هذا حتى يليه قارئ في كتب الفقه ، وهكذا سحابة النهار وطيلة الليل

من غير انقطاع ...! وصرح مؤرخوه من أمثال المناوى والشبلى وصاحب طبقات الشاذلية ، بأن الناس كانوا يسمعون لزاويته دويا كدوى النحل ليلا ونهارا ، ما بين ذاكر وقارى ومجتهد ومطالع فى الكتب ونحوه ، وهكذا حفلت زاويته بالقراء فى الفقه والحديث والتفسير والنحو وما إليها من أدوات العلوم الشرعية ، واكتظت بالقراء فى التصوف والمقيمى على ذكر الله أو قراءة الحزب ونحوه ، مما حمل أهل الفضل فى عصره على أن يصرحوا بأنهم لم يروا فى مشارق الأرض ومغاربها ، خيرا من زاويته علما وفضلا وتصوفا وأدبا<sup>(١)</sup> ...

ولكن كيف تحول الشعرانى صوفيا بعد أن كان فقيها ..؟ إن هذا التحول خلىق بكلمة مستقلة ، لأنه حادث طريف فى تاريخ التصوف الإسلامى كله .

---

(١) قارن لطائف المنن ج ١ ص ١٨ و ج ٢ ص ١١٣ والمنافى ص ١٠٤ و ١٠٦ و ١٥٣ و ١٥٦ - ٧ وطبقات المناوى الكبرى ٤٩٦ وتكميل النور السافر ص ٦٦٢ وطبقات الشاذلية ص ١٣٩ .



## الفصل الثالث

### كيف تصوف الشيعاني؟

قلنا إن الشيعاني قد ألمّ بعلوم الظاهر والباطن ، وتبحر فيها واستوعب أحكامها وشروطها ، وأنه راض نفسه وجاهد شهواته ، حتى زهد في أطيب العيش ، وانصرف حتى عما أباحه الشرع من لذات ، ولكن كيف انتقل من مجال الفقه إلى مزاولة التصوف شيخاً يقوم بتربية المريدين ، وتلقيهم الذكر وإدخالهم الخلوة وإلباسهم الخرقاة والأذن لهم بإرخاء العذبة .. ؟

### اختيار الخواص شيخاً يسلك على يديه :

أشار عليه أحمد البهلول - أحد أولياء عصره - بأن يقنع بما جمع من علم ، وأن يلتمس السلوك على يد شيخ يرشده ويوصله إلى حضرة الله . فاستشار أصحابه وشيوخه فيمن يأخذ عنه طريق الصوفية ، فأرشده أكثرهم إلى صاحب التصريف في مصر وقرأها « على الخواص » ، إذ كان يشاع عنه أنه يجتمع برسول الله إبان يقظته ، ويأخذ عنه علم ما يجهل .. ! وقيل إنه ينقل عن

اللوح المحفوظ رأساً من غير وساطة ...! ولم يكن هذا - في عرف الناس - غريباً على هذا الأُمى الذى ورث مقام شيخه « إبراهيم المتبولى » ، وأفاض بالحديث فيما يجهل كبار العلماء فى عصره ...! وقد كان ، فسلك الشعرانى أوسع أهل عصره علماً وفقهاً ، على يد أُمى لا يميز الألف من الباء<sup>(١)</sup> ...!

### مطالب الشروع فى السلوك ومراحله :

ولما اجتمع به الشعرانى أول مرة ، دار بينهما حديث عرف منه شيخه ، أنه يريد السلوك إلى طريق الله على يديه ، وأنه يحترف طلب العلم ، وأن لديه الكثير من الكتب ، وأنه ينتسب إلى السلطان أحمد بتمسان المغرب ، وأنه ينحدر إلى ابن الحنفية بن الإمام على كرم الله وجهه . فقال له شيخه إن السلطنة والشرف والفقر (التصوف) لا تجتمع فى إنسان . فأعلن الشعرانى استعداداه للتخلى عن مجد السلطنة وجلال شرفها فى سبيل الفقر ...

يقول الشعرانى : إن الخواص قد أمره فى أول اجتماع به ، أن يبيع كتبه وينفق ثمنها إحساناً على المعوزين ، فاستجاب لمطلبه ، وكان من بينها ما يقوّم بثمان غير زهيد ، وكان قد دوّن على هوامشها الكثير من تعليقاته وحواشيه ،

(١) قارن قواعد الصوفية ١٧٨ - ٩ ودرر النواص ٦٨ - ٩ والجواهر والدررس ١ والنائب الكبرى ٥٣ ولطائف المتن ج ١ ص ٢٦ و ٤٩ والبحر المورود ٣٦٧ .

فلبثت نفسه تهفو إليها ، ووجهه يجسّم له أمرها ، حتى خيل إليه أن معين علمه  
قد غاض ، فطلب إليه شيخه أن يستعيض عنها بالتجرد لذكر الله حتى ينساها ،  
تمشياً مع القول المعروف : ملتفت لا يصل . فاستجاب لنصحه حتى هياً الله له  
سبيل الخلاص منها .. !

يقول صاحب المناقب إن الشعراني قد أبقى من كتبه شرح الجلال الخلي  
على المنهاج ، لكثرة تعليقاته عليه ، ولكنه راض نفسه بعدُ على احتمال بيعه ،  
أملاً في الوصول إلى حضرة الله ، ثم مضى إلى شيخه وأنبأه بذلك ، فطلب  
إليه أن ينصرف عن طلب العلم وحضور مجالسه عاماً كاملاً ، فامتثل أمره ،  
ثم اتصل به بعد هذا العام ، فقال له شيخه : بقيت فارغاً والفارغ يملأ ولا  
يتغير ما فيه . ولعله أراد بهذا أن يقول إن النفس تكون أقدر في حال الجهل  
على تلقي الألهام الألهي منها في حال العلم ، وأن العلم الدني لا يغير علم الظاهر  
في حقيقته .

ثم طلب إليه شيخه أن يعتزل الناس ويتحامي مجالسهم ، وينقطع  
لذكر الله سرّاً وجهراً ، وأن يحرص على المبادرة بطرد كل خاطر يهفو إلى  
ذهنه ، حتى لا يكون له من شاغل دون الله ، وأقام على هذا بضعة أشهر . ثم  
أمره بالزهد في لذات الطعام ، فانصاع لأمره حتى أحس وكأنه يصعد بالهمة  
في الهواء ، وأن العلوم الوهبية تزامم العلوم الثقيلة في نفسه ، فأشار عليه

بالتوجه إلى الله تعالى ، في التماس الأدلة الشرعية على ما يرد عليه من علوم  
الباطن ، فلما أطلعه الله عليها ، ومحى العلوم الثقيلة من لوح قلبه ، لا ندارجها  
في تلك الأدلة ، أقبلت عليه العلوم الوهبية تترى ، ونزل به الهاتف يوم الإثنين  
في السابع عشر من شهر رجب سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة للهجرة ، فيما  
يقول في « آداب العبودية » ، وكان أثناء هذا يقف بالفسطاط تجاه الروضة  
بالقاهرة ، حيث تراحت العلوم اللدنية على أبواب قلبه ، وقد وسع كل باب  
منها ما بين السماء والأرض ، فأخذ يفيض في تفسير القرآن الكريم والحديث  
النبوي ، ويستنبط منها أحكام الدين وقواعد النجوى وغيرها ، حتى أغناه هذا  
عن استقاء العلم عن آثار المؤلفين - قدامى كانوا أو محدثين .. ! فسجل من  
هذه العلوم الوهبية ما استغرق نحو مائة كراسة ، وأطلع عليها شيخه ، فأدرك هذا  
أنها علم مخلوط بفكر وكسب ، وحاشا لعلوم الوهب أن تكون كذلك ، وأمره  
بمحوها والعمل على تصفية القلب من شوائب النظر العقلي ، لأن بينه وبين  
العلم اللدني الخالص ألف مقام .. !

وكان الشعراني كلما دَوَّن ما خاله من العلم اللدني ، الذي يرد على قلبه من  
الفتح الإلهي ، عرضه على شيخه ، فيأمره شيخه بأن يعرض عنه ويلتمس ما  
فوقه ، حتى أذعن للاعتراف بأنه « وصل » ، والله الحمد أولاً وآخرأ .

## بدء الفتح الإلهي :

وحين أجلسه « الخواص » بين يديه ، وأخذ عليه العهد ولقنه الذكر وأعطاه الورد ، أنبأه بأن الفتح الإلهي سيكون بروضة المقياس ، وطلب إليه أن يمضي إليها في صباح الغد ، ومعه الدواة والقرطاس ، وأن ينتظر فتح الله . وأحس الشعراني وهو في هذا الانتظار بأن قلبه انفتح فيه باب يتسلل منه علم الله ، فسجل منه سبع كراسات ، بدأ لشيخه أنها لا تخلو من علم الظاهر على ما أشرنا ، فطلب إليه محوها وانتظار الفتح مرة ثانية فثالثه ، وتكرر هذا حتى فتح الله عليه بعلم آداب العبودية ، فلما رآه شيخه قال : تم أمرك وعلا قدرك وروى قلبك ، فأبقى على ما تكتب . فسمى الشعراني هذا الكتاب « الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية » والكتاب لا يزال موجوداً ، وقد تعددت طبعاته .

وفي تصوير الشعراني لمراحل وصوله طرافة ، تستحق أن نقف عندها قليلاً ، فهو يصرح بأن بحر العلم عند شيخه مبسوط الرحاب ، عميق القاع ، وهو لا يقوم على غير الكشف الصحيح والتعريف الإلهي ، ولا يتصل بالفكر والنظر في كثير ولا قليل ، وقد غطس الشعراني في هذا البحر - فيما يقول - خمس مرات ، فلما همّ بالسادسة استحال البحر حجراً ، وقد وجد في كل مرة غاص فيها صيداً من خزان العلم اللدني ، يقول : « ففي المرة الأولى وجدت

خزينة على بابها قفل ، ففتحتها بقول : لا إله إلا الله ، فوجدت فيها جملة العلوم التي برزت من اللوح المحفوظ إلى جميع هذا العالم على اختلاف طبقاته ، من الصديقية الكبرى إلى آخر درجات الولاية ، مشتملة على علوم لا تحصى إلا بتعريف من الله عز وجل ، مكتوب على كل علم اسمه ، فأخرجت جميع تلك العلوم وجعلتها عندي في ذخيرتي ، فلما غطست في المرة الثانية وجدت خزانة أخرى ، على بابها قفلان ، ففتحتها باسم الله ، فوجدت في الخزانة جملة من آيات القرآن العظيم ، من أول سورة الحق إلى آخر القرآن ، ووجدت تفسير كل آية من تلك الآيات مكتوباً عنها ، فأخرجتها ووضعتها في الذخيرة بجانب علوم الخزينة الأولى ... »

وهكذا يمضي الشعراني في شرح ما صادفه من العلم اللدني في كل مرة ، حتى إذا انتهى إلى الخامسة ، أغلق باب ذخيرته على ما أودعه فيها ، وأحكم إغلاقه بعشرة أقفال ، لا يفشى سره إلى أحد من الناس ، خشية الإنكار وتوقع الاستخفاف . . ! حتى عاد إليه وارد الحق على لسان هاتف مرات ، وأنبأه بأن الجنة محرمة على البخلاء ، فانشرح صدره ، وقوى عزمه على إفساء هذه العلوم وتدوينها ، توطئة لإذاعتها في الناس ، فلما همّ بكتابتها بترتيب عشوره عليها ، وجد على باب كل خزانة إعلاناً يشير إلى اسمها ، إلا الخزانة الأخيرة ، فقد وجد على بابها خاتمة فترجها كما رآها .

وواضح من هذا ، أن الشعراني كان يتهيب خصومه من العلماء والفقهاء ، فيتردد في إعلان ما اهتدى إليه من علم الباطن ، ويصرح بأنه حين غاص في بحر العلوم السالفة ، تحرى مواضعها القريبة من الساحل ، وحرص على تجنب التعمق في غوصه ، وأشار إلى كتاب وضعه باسم « تنبيه الأغبياء على قطرة من علوم الأولياء » ضمنه الكثير مما يستعصى فهمه على أكثر الناس ، فلما تحقق من حيرتهم في فهمه ، عمد إلى محوه<sup>(١)</sup> .

### تفهم الشعراني في ضوء المنطق السيكولوجي :

وربما بدا في أقوال الشعراني ، إغراق يخرجها عن حد المعقول ، ولكن من الإنصاف لهذا الرجل أن نذكر - حين نتفهم ما يرويه من أحداث وقعت له - روح العصر الذي عاش فيه ، والعقاية التي كان - الشعراني - يتفهم بها ما يعرض له من ظواهر ، والإيمان العميق الذي كان يستوعب نفسه ويستغرق تفكيره ، عندئذ يسهل علينا أن نبرئه من تهمة الكذب ، حتى فيما لا يسيغه العقل مما يرويه واقعاً ، فإن من اليسير على مثل هذا الرجل ، أن يتصور مخلصاً ما لا وجود له ، وأن يدرك صادقاً ما يختلقه بوجهه ، وتخدعه تصورات وأوهامه فيرويها صادقاً في إيمانه بها . وما من شك في أن إغفال

(١) لطائف المتن ج ١ ص ٥٠ والمناقب الكبرى ٥٤ - ٥٨ .

النواحي السيكولوجية في حياة هذا الرجل ، والاستخفاف بتتبع تطوراته النفسية ، في ضوء الجو المعنوي الذي يعيش فيه ، والانتقاد لمنطق العقل الجاف وحده في تفهم شخصيته ، يفضى إلى العجز التام عن فهم حقيقته ، وسعود إلى بيان هذا في الكلمة الأخيرة ، التي ختمنا بها هذا البحث .

وإذا كان الشعراني قد لازم شيخه « الخواص » هذه السنين الطوال ، واستقى العلم من معينه الفياض ، فقد أبي أن يأخذ مكانه بعد مماته ، لأنه لم يقمه في حياته شيخاً ، فلما عرض عليه أصحاب هذا الاقتراح أن يقيموه مكانه ، طلب إليهم أن يملوه ليلة ، عاد بعدها إلى رفض مطالبهم ، استجابة لما رآه في ليلته<sup>(١)</sup> :

### سلوكه على يد سائر شيوخه :

وقد أشرنا من قبل إلى أن الشعراني ، قد سلك الطريق على كثرة من شيوخه ، ومن هؤلاء الشيخ « على المرصفي » ، الذي اعتبره الناس « جنيد » عصره ، وأشاعوا عنه أنه لم ينهض بتربية المريدين ، إلا بعد أن أذن له الله بذلك على لسان رسوله . . ! وقد كان في بداية أمره أمياً - فيما يقول الشعراني نفسه - وقد حاول أن يلقن الشعراني الذكر ثلاث مرات ، طلب إليه الشعراني

---

(١) طبقات المناوي الكبرى + ٤٩٦ وقرن لطائف المنن ج ١ ص ٢٠٥ وتكميل النور السافر ٦٦١ .



في أولها، أن يلقنه الذكر بحال قوية ، فقال باسم الله يا ولدي، ثم أطرق رأسه ساعة ، وطلب إليه أن يقول : لا إله إلا الله ، فما أتمها حتى غاب الشعراني عن وعيه ، فلما أفاق عند غروب الشمس ألنى نفسه وحيداً ، فأدرك أنه أساء الأدب في طلبه ، ولهذا كَفَّ عن الاجتماع به خمسة عشر عاماً . . !

ولما همَّ الشيخ بتلقيه الذكر مرة أخرى ، غاب الشعراني عن وعيه . . . ثم تمت عملية التلقين ثالث مرة ، ولزم شيخه بعد هذا حتى مات عام نيف وثلاثين وتسعمائة للهجرة ، ودفن بزوايته بقنطرة الأمير حسين<sup>(١)</sup> .

وقد تلقن الشعراني الذكر ، وأخذ العهد ولبس الخرقة على يد شيخه « محمد الشناوى » + ٩٣٢ ، وأجيز منه بتربية المريدين في حضرة جمع من الناس ، في ليلة مات إبانها ، وتسامع الناس بهذا النبأ ، فأقبلوا عليه ، يلتمسون منه أن يلقنهم الذكر ويأخذ في تربيتهم ، فاستشار في ذلك شيخه « عليا الخواص » ، فأبى عليه شيخه ذلك<sup>(٢)</sup> . . !

وقد ألبسه شيخ الاسلام « زكريا الأنصارى » الخرقة ، وهى أثر من قميص أو جبة أو نحوها ، متى اتشح بها المريد فاضت عليه ظاهراً وباطناً . . ! بل اتصل الشعراني بالصادقين من شيوخ عصره ، وأخذ عنهم كافة الطرق الصوفية المعروفة في أيامه : من الرفاعية والقادرية والأحمدية والبرهانية والشاذلية

(١) المناقب ٥٩ ورحلة النابلسى ١٠٩ وتكميل النور السافر ٦٦١ .

(٢) الطبقات الوسطى ٢٠٤ و + ٢٠٥ والمناقب ٦٢ - ٣ .

والسهروردية والنقشبندية والحسينية والوفائية والكشيرية والمدينية والفردوسية  
والخلوتية والأوسية والهمدانية والطيفورية والشطارية والخضرية والأدهمية  
والعزيرية والسعودية ، والمصافحة والطيلسان والرداء والمُنز ، وكل طريقة منها  
تتصل بالرسول وتنتهي إلى الله عن طريق جبريل فيما يقول القوم <sup>(١)</sup> .

على هذا النحو تصوَّف الشعرا نى ، وكان تصوفه بدء عهد جديد ،  
تطلع فيه إلى انتزاع السيادة الروحية في العلم والطريق ، فأثار ضيق نفر من  
الفقهاء ، وظفر بعطف الأمراء وأهل اليسار ، واضطلع بتربية الألو ف من  
المريدين والمعجبين ، وكان تصوفه بهذا صفحة جديدة ، في تاريخ الحياة الروحية  
في مصر . . .

## الباب الثاني

### علاقة الشعراء في معاصريه

عرضنا في الباب السالف شيئاً ، عن سيرة الشعراء علماء  
وصوفياً ، ونريد أن نتبعه في هذا الباب مع معاصريه ، لأن  
هذا كفيلاً بأن يضيء الجوانب المظلمة في عصره ، ويكشف  
المناطق المجهولة في حياته ، وبهذا تتجلى نواحيه المشرقة الوضوءة ،  
ويظهر على صفحاتها ما يُظن أنه كان يشينها من مآخذ .

فلنجاول الاتصال بعلاقاته مع علماء الدين خصوصاً وأنصاراً ،  
وشيوخ الطريق صادقين وأدعياء ، والمريدين السالكين في  
حب الله أو في طلب المنفعة ، وحكام البلاد مظلمة كانوا أو  
عدولاً :

## الفصل الأول

الشعراني مع العلماء والفقهاء

ولاؤه للعلم الظاهر :

أشرنا إلى أن الشعراني لم يدعن للعلم المدني حين هبط إلى قلبه ، حتى جاءت الأدلة الشرعية مؤيدة لصحته ، ولا يكاد يخلو مؤلف من مؤلفاته من توكيد هذا الرأي ، كما دعت إليه مناسبة ، بل كثيرا ما يخلط المناسبات ، للتدليل على أن علم الباطن لا يخالف علم الظاهر ، وأن أهل الحقيقة على اتفاق مع أهل الشريعة ، وأن كل صوفي فقيه ، وإن لم يكن العكس صحيحا . فالتصوف علم ينفذ في قلوب الأولياء ، حين تستنير بالتزام العمل بالكتاب والسنة ، بل اعتبر الفقه مدخل التصوف ، وقرر بأنهما وجهان مختلفان لعلم واحد<sup>(١)</sup> ، بل لقد كان الشعراني في حملاته على أدياء الطريق ، يرد

(١) فارن الجواهر والدرر ١٧٢ - ٣ وقواعد الصوفية ١٧٧ و ٢٣٤ ودرر الفواص ٥٦ والبحر المورود ٣٤٧ وإرشاد الطالبين ٦٧ ولطائف المنن ج ١ ص ٢٤٢ واليوافق ج ١ ص ٢ - ٣ و ٢٣ و ج ٢ ص ١١٥ . الخ ومقدمة الميزان ص ٣ - ٤ وانظر ما يقوله عنه في هذا الصدد « نيكسون » Nickolson في « تاريخ العرب الأدبي » ص ٤٦٥ .

خصومته لهم ، إلى اختلاف طرقهم وظاهر سلوكهم ، مع كتاب الله وسنة رسوله ، وجهلهم بالدين وأحكامه ، مع أن الفقه مدخل التصوف ، ولا يكون التصوف بغير تفقه في الدين وتبحر في علومه . وقد حاول التوفيق بينهما حتى وقف على تحقيق هذه الغاية بعض مؤلفاته - كاليواقيت مثلا - وأوجب على من تتلمذ على الأموات من الأولياء ، ألا يدعن لهواتفهم حتى يقرأها رجال الشرع ، مخافة أن يكون الناطق بها شيطانا لا وليا ، وحملته هذه النزعة ، على الدفاع عن الكمّل من أهل التصوف ، ممن اتهموا بالمروق من الدين ، والتحرر من تعاليمه ، بل جدّ في تأويل ما صدر في حال « غيبتهم » ، ووظّف قلمه للدفاع عنهم ، وحسبنا في تقرير هذه النزعة ، أن نشير إلى موقفه من شيخه « ابن عربي » وسنعرض له بعد قليل .

وقد مثل الشعراي معسكر الصوفية الداعين للعلم ، وهاجم معسكر الداعين للجهل من أرباب الطريق على ما سنعرف .

وزاد على هذا إعلان ولائه للعلماء والفقهاء ، حتى ولو أساءوا الظن به ، وعملوا على التشهير بسمعته ، واتهموه بما ليس فيه ، حرصا منهم على ظاهر الشرع .. ! بل وضع آدابا أوجب على من يطلب العلم على أهله من الفقهاء اتباعها ، فكفل بهذا توفير الاحترام والتوقير لهم ، وإن كان هذا كله ، لا يتنافى

مع إشاره لعلم الباطن على علم الظاهر ، حتى أذاه هذا الإيثار في بعض الأحيان ، إلى الخط من شأن العلوم الدينية التي تحجب اكتسابها ، فكان هذا مدعاة لضيق العلماء به ، ونهوضهم للتشهير بسمعته ...

### السفر في خصومة الفقهاء له :

ولكن الشعراني كلما عرض لذكر النزاع الذي ثار بينه وبين الفقهاء ، رده إلى حسدهم له وغيرتهم منه ، ولهذا ما يبرره ، فإن الصدارة بين الناس كانت موزعة في هذا العصر ، بين الفقهاء وشيوخ الطريق ، وكان الشعراني ملحوظ المكانة موموق النفوذ - على ما عرفنا - فليس غريبا أن يكون مثارا لحسد العلماء وغيرتهم ، ومن أجل هذا تردد - في هذا العصر - صدى ذلك النزاع الذي وقع بين الفريقين ، منذ القرن الثالث للهجرة ، وتجلي في موقف الخوارج والأمامية وأهل السنة من الحشوية وأمثالهم من تلامذة ابن حنبل ، في إنكار التصوف المارق <sup>(١)</sup> .

بل إن المتتبع لمناوأة الفقهاء لأرباب الطريق في عصر الشعراني ، يلاحظ أن شدة المناوأة تكاد تتمشى طرديا مع علم الصوفية ، عكسيا مع جهلهم .. ! فإن خصومتهم للشعراني - وتلميذه المناوي ، وهما من خيرة من عرف عصرهما

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية في تعليق معالي أستاذنا مصطفى باشا عبد الرازق على مادة تصوف للأستاذ ما سينيون - النسخة العربية .

من أهل العلم والتصوف معا ، تربى كثيرا على خصوصتهم اللينة ، لأمثال محمد كريم الدين الخلوتي ، ممن كانوا يجهرون باحتقار العلوم الشرعية ، ويستخفون بالاشتغال بدراستها ، ولعل مردّ هذه الظاهرة ، إلى اشتراك المستنيرين من الصوفية مع الفقهاء في العلم بالدين ، وامتيازهم عنهم بالتصوف ، الحبيب إلى نفوس الناس جميعا ، وقد أشار نيكلسون إلى أن الشعراني كان - لسعة علمه بالدين - يحارب الفقهاء بسلاحهم ، ورأى « فولرز » أنه بدا في « البحر المورود » جريئا في مهاجمة العلماء ، والتنديد بظمهم وزهوهم ، والتشهير بجشعهم وتهاقهم على الوظائف <sup>(١)</sup> . وهذا الكتاب - في الواقع - حافل بالشواهد التي تؤيد هذه الملاحظة .

### ثورة الفقهاء عليه :

وقد بدا الشعراني مارقا من الدين في رأى طائفة من الفقهاء .. ! فنهض بعضهم لمناواته ، وحاولوا التنكيل به ، وأثاروا بشأنه فتنة في الجامع الأزهر بمصر ، وأشعلوا نارها في الحجاز ، فزَيَّفوا مقدمة كتابه « كشف الغمة » ، واستعاروا نسخة مما نسخته مريدوه من كتاب « للبحر المورود » - الذي هاجمهم فيه - ودمسوا فيها تعاليم تخالف ظاهر الشريعة ، وضمنوها وجوها من

(١) Vollers في دائرة معارف الدين والأخلاق لناشرها Dr. Hastings

العبث ، لا يتفق مع صلاحه ووقاره ، وأرسلوها إلى طائفة من خصومه ،  
فأذاعوها في مصر ومكة ، وحرصوا على التشهير بها بين رجال الأزهر ، من  
غير أن يراجعوه في أمرها ، ولبت التزييف قائما ثلاث سنوات ، حتى اشتعلت  
في الأزهر فتنة ، تزعمها الشيخ «حسين العبادي» وأذكى نازها ، ولكن الشعراني  
كان له حزب من العلماء ينتصر له ، ويدفع عنه شر خصومه وحساده ، وقد تزعم  
حركة الدفاع عنه «ناصر الدين اللقاني» ، و«شهاب الدين الرملي» ، ولكن الفتنة  
لبثت قائمة ، وخصومه ينالون من عرضه ودينه ، حتى اتصل بهم ، وأرسل إليهم  
نسخته الأصلية ، وعليها إجازات الفقهاء وحملة الشريعة من أهل المذاهب  
الأربعة ، وهم «أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحى» الشهير بابن النجار  
(حنبلية) و«ناصر الدين اللقاني» (مالكية) و«شهاب الدين أحمد بن  
يونس» (حنفية) وشهاب الدين الرملي (شافعية) ، وعندئذ انكشف دس  
خصومه وحساده ، وبرئت ساحته .

ولما سكنت الفتنة ، أخذ حساده يشيعون في مصر ومكة ، بأن العلماء  
الذين ذادوا عنه وأجازوا ما كتبه ، قد بان لهم مروقه وإلحاده ، فعدلوا عن  
رأيهم فيه وحسن ظنهم به . ولما استطارت هذه الإشاعة ، رد الشعراني كتابه  
إلى العلماء الذين أجازوه ، ليعاودوا الاطلاع عليه ، ففعلوا ، وأنبتوا تحت  
إجازاتهم الأولى ما ينبي ، عن استمرار مرضاتهم عنه ، واعتقادهم في صدق ولايته .



وسكنت الفتنة مرة أخرى ، ولكن خضومه في معسكر الأزهر مازالوا  
يضيقون به ، ولا يخفون تبرمهم به كما رأوه ، ومنهم من سعى إلى اغتياله .. !  
ومن أمل في إمكان نفيه بعيدا عن مصر .. ! ومن شمرَّ بجهله بالشريمة  
والحقيقة على السواء <sup>(١)</sup> .. !

### تصوف أنصاره من الفقهاء :

هذه هي الفتنة كما بدت في الكثير من كتبه ، ولكننا لاحظنا أن  
الفقهاء الذين نهضوا لنصرته ، يتسمون بطابع صوفي ملحوظ ، وهذه ترجمته  
لهم تشهد بما نقول ، إذ يروى عن الفتوحى الحنبلى + ٩٤٩ أن طالبا طلب  
إليه أن يقرأ للمنطق عليه ، فقال له : إن الفقه قد صار ثقيلًا على قلبي ، فكيف  
بعلم أفنى بعض العلماء - كابن الصلاح - بتحريم الاشتغال به .. ؟ فقال له  
الطالب : يا مولانا إن العلم عبادة ، فقال له الشيخ : هذا صحيح ، ولكني  
لا أجد في العلم « رقة قلب » بخلاف ما أستشعره عند ذكر الله واستغفاره ،

---

(١) البحر المورود في مقدمته و ص ٣٧٦ والجواهر المصون ١٦ ولطائف المنن ج ١  
ص ٣ و ٤٧ و ج ٢ ص ٢٣١ و ٢٨٠ واليواقيت ج ١ ص ٦ - ٧ وتكميل النور ٦٦٢  
وبهجة النفوس ص ٩ والميزان ج ١ ص ٩ ولخص الفتنة : « بروكلمان » وغيره من  
المستشرقين .

وهذا بالإضافة إلى أن فضل العلم على غيره مشروط بالإخلاص ، وما أظن أن بي إخلاصاً<sup>(١)</sup> .. ! وما نظن هذا بحديث فقيه ...

ويقول عن اللقاني المالكي + ٩٥٨ ، إنه كثيراً ما يذهل عن نفسه حين يغلبه تعظيمه لله ، وأنه قد يغادر الجامع الأزهر ، فلا يهتدى إلى مكان بيته ، فيأخذ الأطفال يده ويرشدونه إلى منزله .. ! والأدنى إلى الصواب - فيما يلوح لنا - أن يقال إن هذا مسلك الدراويش وليس مسلك الفقهاء .

ويقول عن شهاب الدين إنه كان يتهجد كل ليلة بثلاث القرآن الكريم<sup>(٢)</sup> وأظن هذا ما نلاحظه عند أرباب الطريق .

فهل معنى هذا أن الأزهر - وهو معسكر الفقهاء - قد خلا من أنصاره .. ؟ هذا بعيد الاحتمال .

### مدى تأثيره بخصومة الفقهاء :

ولكن الشعراني يحاول أن يستخف بهذه المناوأة ويستهن بأهلها ، فيورد - وهو في معرض حديثه عن مثل هذه الخصومة - أقوال غيره ممن يؤيدون هذه النظرة ، إذ يسره أن يقيم الله له عدواً يؤذيه في عرضه ، أسوة

(١) الغزى في الكواكب السائرة ج ٢ ص ١٩٣ - ٤ والطبقات الوسطى ٢٨٧ .

(٢) الطبقات الوسطى ٢٨٨ - ٩ .

بالأنبياء والأولياء ، والنبي لا يفقد حرمة إلا في بلده ، وما وجد قط حلیم في قومه ، إلا تولوه بالبغي والحسد والعدوان ، وأزهد الناس في الأنبياء والعلماء الأقربون ، وما كان كبير في عصره إلا كان له عدو من السفلة ، لآدم إبليس ، ولنوح حام ، ولموسى فرعون ، ولحمد صلى الله عليه وسلم أبو جهل ... وقد اتهم عبدالله بن الزبير بالرياء والنفاق في صلاته ، فصبوا عليه ماء حميا ، حتى زلع وجهه ورأسه ، فلما فرغ من صلاته سأل عن شأنه ، فلما عرف أمره قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . . . ! وقد كابد الأئمة عنتنا شديداً ، فقاسى أبو حنيفة مع الخلفاء ، واستخفى مالك خمساً وعشرين سنة لا يخرج لجمعة ولا جماعة ، وعانى الشافعي من أهل العراق ومصر ، وكابد ابن حنبل الضرب والحبس ، واتهم بالزندقة كبار الصوفية من أمثال أبي مدين وأبي الحسن الشاذلي ومحيي الدين بن عربي . . . . والإنكار على هؤلاء - فيما يقول - قائم في كل زمان ومكان ، فليس بدعا أن تحوط الشعراني الظنون ، وتشار حوله الشائعات <sup>(١)</sup> .

على أن الشيء الذي لا يكاد أن يرتقى إليه الشك ، هو أن هذه الشائعات قد أثارت جزعه ، وأشاعت القلق في نفسه ، حتى أكثر من عرض كتبه على الفقهاء وأئمة الدين في عصره ، لإقرارها وإجازة ما تتضمنه من

(١) البواقيت ج ١ ص ١٢ - ١٤ .

آراء<sup>(١)</sup>...! وكرر في الكثير من مؤلفاته ، حرصه على إعلان اتفاق تعاليمه ، مع ظاهر الكتاب والسنة ، اتقاء لكل ريبة ومظنة ، ودفعاً لكل اتهام يحتمل أن يكون مثاراً لمثل هذه الفتنة<sup>(٢)</sup> .

بل كان من فرط الجزع ، يخرج على المؤلف من عنجهيته واعتزازه بنفسه وبعلمه ، فيطلب إلى فقهاء المذاهب الأربعة ، في تواضع وديع رقيق ، أن يصلحوا ما يحتمل أن يكون قد وقع فيه من أخطاء ، عندما وضع « الميزان الكبرى » ، لأن استحضاره لكل ما يتطلبه الموضوع أثناء التأليف ، أمر عسير شاق<sup>(٣)</sup> .

### بعض ما أخذه :

على أن هذا قد لا يعفيه من الملامة ، إن جاز لنا أن نأخذ بظاهر ألفاظه ، وقد حذر - على ما سنعرف عند ما تعرض لموقفه من ابن عربي - من المبادرة إلى الإنكار ، عند ما يعز التوفيق بين كلام أهل الكشف وقواعد الشرع ، فإن أغفلنا هذا التحذير ، لم نعدم في ظاهر آرائه ما يثير الحيرة ، ويدعو إلى الظنون ، فمن ذلك أنه - في بعض نصوصه - رفع الولي إلى مرتبة الأنبياء ، بل

(١) قارن مقدمة الميزان ج ١ ص ٤ وغيرها من مقدمات الكثير من كتبه .

(٢) قارن مقدمة آداب العبودية في تفسيره للهاتف .

(٣) قارن الميزان ج ٢ ص ٢١١ .

رجح كفته في مراتب التقدير...! فالأولياء قد أوتوا القدرة على الاطلاع على علوم الأنبياء من غير وساطة ، ولولا أن الله طالبهم بعدم ادعاء ما ليس لهم ، لادعوا النبوة...!

والجیلانی يقول : أوتيتم معاشر الأنبياء اللقب - النبوة - وأوتينا ما لم تؤتوا<sup>(١)</sup>...! رغم أنه نفي عن شيخه الأكبر - ابن عربي - إيثاره للولي على النبي ، كما سنعرف بعد قليل .

وقد أخذ الشعراني في تشبيه الولي بالله تعالى ، فالله إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون ، والولي على هذه المقدرة بفضل من الله ، ومن هنا كانت الدنيا في ركابه ، استجيب لأمره وتنصاع لإشارته<sup>(٢)</sup> ، والله لا تأخذه سنة ولا نوم ، وتلك من صفات الأولياء ، وإن كانت يقظة الله دائماً ، ويقظة الأولياء إلى أمد ، قد تمتد سبعة عشر عاماً لا يغمض لهم فيها جفن<sup>(٣)</sup>...! والله مطلع على الخواطر ما ظهر منها وما بطن ، لا يسترها عنه حجاب ، وهذه من صفات الأولياء<sup>(٤)</sup>...! الخ .

على أن الإنصاف يقتضينا أن نشير إلى أن في الإمكان أن يكون حساد الشعراني ، الذين نفسوا عليه مكانته ، قد زيفوا أقواله ، ودسوا عليه ما ليس

(١) الجواهر والدرر ٢٧٨ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٦ ولطائف المنن ج ١ ص ٥٥ .

(٣) الجواهر ١٤١ .

(٤) المصدر نفسه ١٧٩ .

منها ، وأن ماوصل إلينا من آرائه ، التي لا تتمشى مع ظاهر الشرع ، أثر من آثار هذا الدس والتزييف ، على أن عكس هذا الاحتمال يدخل في باب الإمكان . . . . !

وإذا كنا قد صرحنا بأن خصومة الفقهاء له ، قد أزعجته وأثارت قلقه ، فإن هذا يتمشى مع ما لاحظته المستشرق « فولرز » Vollers من قبل ، حين أشار في معرض حديثه عن النزاع بين أهل الفقه ورجال التصوف ، إلى أن الغلبة كانت على الدوام للفقهاء ، وأن الشعراني الذي كان ممثلاً نابهاً للتصوف ، شديد التمسك بتعاليمه ، لم يكن له مكان في الأزهر<sup>(١)</sup> . . . . ! وإن كنا نلاحظ من جانبنا ، أن سعة الحيلة عنده ، مع ما تهيأ له من تفوق في العلم على أهل عصره ، قد مكنته من اكتساح خصومه ، وأكبر الظن أنه لو شاء التدريس في الأزهر ، لما عز عليه ذلك ، ولكنه كان - كغيره من أهل الطريق ، يؤثر حياة التصوف ، على مجرد الاشتغال بالعلم الظاهر ، بل كان يصرفه عن هذا النوع من العلم ، استغرافه في العبادة ، وانصرافه إلى أمر زاويته وشئون مر يديه . . . !

---

(١) مادة أزهر في دائرة المعارف الإسلامية .

## الفصل الثاني

الشعراني مع شيخ الطريق

صادقين وأدعياء

ولاؤه لابن عربي ودفاعه عنه:

أدرك الشعراني في صدر شبابه فحول أرباب الطريق في مصر، فتلقى عنهم وسلك على يدهم، واتصل بكبار السلف من الصوفية، وعاش معهم في آثارهم، وتأثر بهم تأثراً ملحوظاً، وكان أكبر هؤلاء خطراً في تصوفه: محيي الدين بن عربي + ٥٦٣٨ - ١٢٤٠م الذي غلب تأثيره فيه، ما كان لصفوة شيوخه المقربين، من أمثال علي الخواص وإبراهيم المتبولي، وقد استبد هوى هؤلاء الشيوخ بقلبه، حتى زاره ضيقاً بعصره، وجعله أحسن بسوءاته، وأعظم إدراكاً لمواطن الضعف عند معاصريه ..!

ولكن ابن عربي - وقد كان تأثيره عليه غالباً - كان مشار ضيق ومحط اتهامات، وجهها إليه الكثيرون من الفقهاء، ولا سيما السلفيون منهم، وحسبه

أن يكون صاحب نظرية في « وحدة الوجود » اتبقي معها التمييز بين الخالق  
والخلق<sup>(١)</sup> . . . ! ولكن الشعراني يتصدى للدفاع عنه ، ويحذر من التسرع  
في الإنكار على أمثاله من أهل الكشف ، لأن تصوفهم ، ليس إلا ثمرة التزامهم  
لظاهر الكتاب والسنة . . . ! ولكن مراتبهم قد علت في مجال الفهم « والذوق » ،  
فجرت لهم مصطلحات تدق عن الأفهام ، حتى لتبدو من مقاماتهم ، وكأن  
أفاظهم لا تجرى على ظاهر الكتاب . . . ! والإنكار عليهم يتطلب سبق  
إلى التعمق ، وتذوق معجزات الرسل وكرامات الأولياء ، والاطلاع على  
كتب التفسير والتأويل وشرايطه ، والتبحر في معرفة لغات العرب ومجازاتها  
واستعاراتها ، والبلوغ في هذا إلى غايته ، والعلم بمقامات السلف والخلف ،  
والتوسع في أصول الفقه ومعرفة منازع أئمة الكلام . . . . وأهم من هذا  
كله ، الأمام بمصطلحات الصوفية فيما عبروا به عن التجلي ونحوه . .

ويتصدى الشعراني لتفسير « وحدة الوجود » عند ابن عربي ، بحيث  
تبدو على اتساق مع ظاهر الشرع . . . ! فيعرض مارواه عنه المنكرون  
من قوله : لا موجود إلا الله ، ويقول إذا صحت نسبة هذا القول إليه كان

---

(١) انظر مادة ابن عربي في دائرة المعارف الإسلامية ( النسخة العربية ) للأستاذ  
« وير » T. H. Weir وتعليق « الدكتور أبو العلا عفيفي » عليها ، وبمخه في المجلد  
الأول من مجلة كلية الآداب في مايو سنة ٩٣٣ وكتابه القيم :



مراده أن ليس ثمة موجود قائم بنفسه غير الله ، وكل ما سواه من الموجودات يقوم بغيره لا بذاته ، ومن كانت حقيقته كذلك ، فهو إلى العدم أقرب وأدنى ، لأن وجوده مسبوق بعدم ، ومتردد بين وجود وزوال ... ! والمظنون أنه قال : لا موجود إلا الله ، حين تلاشت عنده الكائنات ، عند ما تجلى له الحق فشاهده بقلبه ، وقد صدق « الجنيد » حين قال : من شهد الحق ، لم ير الخلق ... !

وإذا كان خصوم ابن عربي ، يتهمون بأنه جعل الحق والخلق واحدا ، حين قال : فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده ، جاز تأويل الحمد بالشكر ، فيكون تفسير كلامه ، فيشكرني تعالى إذا أطعته .. ويبرر هذا قوله تعالى : اذكروني أذكركم . وأما قوله فيعبدني وأعبده فقد أراد بها يعطيني بإجابته دعائي ، وقد قال تعالى لا تعبدوا الشيطان - أي لا تطيعوه ، إذ لا يعبد الشيطان أحد كما يعبد الله تعالى .. !

ويمضي الشعراني في هذا الدفاع حتى يعرض لاتهام شيخه ، بأنه آثر الولي على الرسول ، فينكر صحة هذا الاتهام ، ويقول إن الشيخ كان يرى أن الناس إن اختلفوا في رسالة النبي ﷺ وولايته ، وثاروا في أي الاثنتين أفضل ، وجب إثارة ولايته لشرف المتعلق ودوامها في الدنيا والآخرة ، على عكس الرسالة التي تتصل بالخلق ، وتنقضي بانقضاء التكليف ، فالكلام

مُنصب على رسالة النبي وولايته ، لا على المفاضلة بينه وبين غيره ، في الرسالة  
والولاية ... الخ

آمن الشعراني بأن علم شيخه قائم على الكشف والتعريف ، مُطهر  
من الشك والتحريف ، وأن ما يكتبه لا يصدر عن روية وفكر ، بل عن  
فيض إلهي ونفث رباني على يد ملك الإلهام ، فهو « إملأ إلهي وإلقاء رباني  
أو نفث روحاني » في روح كيانه ، « بحكم الإرث للأنبياء والتبعية لهم » .  
إلى آخر ما يرويه عنه <sup>(١)</sup> ، فكل ما اتهم به مما لا يساير (ظاهر) الشرع  
مدسوس عليه لا محالة ... !! وقد شهد بهذا من يوثق في إيمانهم ، بل  
تشهد به كتبه المروية عنه بالسند الصحيح ، وقد وضع الشعراني كتاب « لواقع  
الأنوار القدسية » ونخص فيه « الفتوحات المكية لابن عربي » وخص  
به العلماء الأكابر ، إذ « ليس لغيرهم منه إلا الظاهر » ثم انتخب منه كتابا  
سماه « الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر » - في جزءين -  
ووضع « اليواقيت والجواهر ، في بيان عقائد الأكبر » - في جزءين -  
حاول فيه التوفيق بين عقائد أهل الكشف والعيان ، وعقائد أهل  
الفكر والاستدلال ، وأقام هذا الكتاب كله على أقوال ابن عربي

---

(١) اليواقيت ج ١ في مقدمته والفصول الثلاثة الأولى ، وقد لمس الأستاذ نيكلسون  
R. Nickolson في كتابه السالف ( ص ٤٠٣ ) موقف الشعراني من الاتهامات التي  
يوجهها إليه خصومه

في الفتوحات وغيرها من آثاره ، وفيه يصرح بأن الشيخ أبا طاهر المزني الشاذلي ، قد أنبأه بأن جميع ما في كتب ابن عربي ، مما يخالف (ظاهر) الشريعة ، مدموس عليه . . . . ! لأنه رجل كامل بإجماع المحققين ، والكامل يجوز في حقه شطاح عن « ظاهر » الكتاب والسنة . . ! ومن آثار الشعراني التي لا تزال مخطوطة « سواطع الأنوار القدسية » ، فيما صدرت به الفتوحات المكبية » ، وقد جمعها فيما يقول بأشارة من صاحب الفتوحات في رؤيا وقعت له أثناء النوم ، وله رسالة صغيرة سماها « القول المبين في الرد عن محبي الدين » ولها نسخة أخرى تحت عنوان « تبرئة الشيخ الأكبر » يحاول فيها أن يبرئه من القول بقدم العالم أو الحلول أو الاتحاد أو نحوه . . ! ويزعم أنه عثر على نسخة بخط ابن عربي ، تحقق منها أن كل ما اتهم به مدموس عليه ، وعرض للكلام على علومه وأحواله ، في كتاب « تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء <sup>(١)</sup> » ، والمتتبع لكتب الشعراني لا يملك إلا القول بأنه كان في مصر ، بوقا لترداد الآراء التي نسبت إلى ابن العربي ، مع ملاحظة مبالغته في الدفاع عنه ، وتأويل أقواله ، حتى نفى عنه القول بوحدة الوجود ، واستبعد من حياته الشطحات الصوفية ، وأبداه وكأنه فقيه من أهل السنة . . !! وهذا نزوع يبدو في عنوان كتاب له ، ورد في بركلان <sup>(٢)</sup> .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٦٠ .

(٢) هو كتاب « الفتح في تأويل ما صدر عن الكمل من الشطح » مخطوط في مكتبة ول الدين بتركيا .

### صلته بالخواص :

أما عن كثرة شيوخه من أهل التصوف في عصره ، فحسبنا منهم « على الخواص » و « إبراهيم المتبولي » ، فأما أولها فلا يكاد يخلو من ذكره كتاب من كتبه ، وهذا مضاف إلى كتب خص بها أقواله ، أشهرها « الجواهر والدرر الكبرى » الذي ضمنه إجابات الخواص على أسئلة وجهها إليه ، خلال صحبته له سنوات طويلاً ، - وهو لا يزال مخطوطاً - ثم « الجواهر والدرر الوسطى » وضمنه بعض ما أفاد عن شيخه ، واستقى الكثير من مادته عن الكتاب السالف ، ثم « درر القواص على فتاوى سيدي علي الخواص » وهي إجابات على أسئلة وجهها إليه كذلك . وقد عرض للحديث عن مناقبه وكراماته وأحواله في طبقاته الكبرى والوسطى ، ولطائف المنن وغيرها من مصنفاته ، وكل ما أفاده منه ، استقاه عن شخصه مشافهة ، لأن الخواص كان أمياً على ما عرفنا .

### صلته بالمتبولي :

أما إبراهيم المتبولي فقد كثرت ذكره بالخير في كتب الشعرائي ، وقد وضع سفرأ ضخماً في بضع مئات من الصفحات ذات الحجم الكبير (٥٩٠ صفحة) ضمنها ما خاله من أخلاق شيخه وسماه « الأخلاق المتبولية » - وهو

لا يزال مخطوطاً ، ثم وضع « المنح السنية على الوصية المتبولية » وضمنها التعليق على وصية شيخه ، وهذا كله يصاحبه ترداد اسمه ، وإضافة الصفات الطيبة له في جل مصنفاته .

وكان المتبولى - مع هذه المكانة ، التي تهيأت له عند الشعرانى - مثاراً لاتهامات مروعة ، اتهم بالفسق فى العلمان ، وعدم إقامة الصلاة .. ! ويروى الشعرانى هذه الاتهامات ، ويعقب بردها وبيان وجه الباطل فيها ، فيقول إن بعض فقهاء الأزهر ، ناموا ليلة فى زاويته ، فلاحظوا وجود « مملوكين أمردين من أبناء الأمراء ، ينامان معه فى الخلوة » ، فأنكروا ذلك ، ورفعوا أمر الشيخ إلى الشرع ، فأرسل القاضى فى طلبه ، وأنبأه بدعوى المنكرين ، وحرمتها فى الشرع إن صحت ، فسلم المتبولى بالانتهام ، « وقبض على خيته بأسنانه ، وصاح فيهم ، فخرجوا صائحين ، لم يعرف لهم خبر بعد ذلك » ، حتى تسامع الناس بأنهم « أسروا فى بلاد الإفرنج .. ! فشفعوا فيهم عند الشيخ فلم يقبل شفاعة أحد » واختفت بعد هذا أخبارهم<sup>(١)</sup> .. !

يقول الشعرانى « وكان رضى الله عنه ، لا يراه أحد يصلى الظهر فى مصر أبداً » .. ! فأنكر عليه بعض الفقهاء ذلك ، ولكن أحدهم سافر إلى

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٧٦ .

الشام ، فوجد الشيخ المتبولى يصلى هناك ، فسأل خادم المسجد فى ذلك ،  
فأنبأه هذا بأن المتبولى يقيم صلاة الظهر هناك دواما .. ! فرجع عن إنكاره ..  
وبمثل هذا يدافع الشعرانى عن أستاذه<sup>(١)</sup> .. !

### شخصيته فى كتاباته عن شيوخه :

على أن تصوير الشعرانى لابن عربى ، يبرر القول بأنه كان يتطلع أقوال  
شيوخه ، ويبدئها على صورة تلامم منطقته ، ولهذا بدا هؤلاء الشيوخ فى  
مؤلفاته على صورة واحدة ، رغم أن بين فلسفة ابن عربى الصوفية ، وأمية  
أمثال الخواص والمتبولى ، هوة سحيقة القرار .. ! ولكن الشعرانى إن عرض  
للممتازين ، هبط بهم ، وإن تحدث عن الأميين ، ارتفع بتفكيرهم ، ومن هنا  
بدا التشابه بين شيوخه على ما بينهم من فوارق فى الثقافات ، ووجوه الفهم  
ودقة الإدراك ، ولهذا آثرنا ألا نفرّد لكل منهم حديثا ، وأن نتقصّى الشعرانى  
كما يبدو « فعلا » فى مؤلفاته .

### شيوخ الطريق فى نظره :

ويكاد المتتبع لآثار الشعرانى ، أن يجزم بأنه يقسم شيوخ الطريق  
— ومر يديه والناس أجمعين — فريقين لا وسط بينهما ، أطهارا أبرارا ، وفجرة

أشارا .. ! فهو يرتفع بشيوخه إلى مرتبة التقديس والتنزيه ، وينحط  
بالكثيرين من أقرانه إلى مرتبة الأدعياء والدجالين ، وربما كان مردّ هذا  
إلى شيوع الدجل والادعاء في التصوف إبان عصره ، وهو من أجل هذا يكثر  
من مهاجمة الأدعياء ، ويوظف قلبه في محاربتهم ، وتشهد بهذا عناوات الكثير  
من كتبه ، مثل : ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى ( مخطوط ) و « تنبيه  
المعتزين في أواخر القرن العاشر ، على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر » مخطوط -  
إلى آخر ما نراه في ثبت كتبه ، في « بروكمان » وغيره ، وليس من بينها  
- فيما عرفنا مما وقع لنا منها وهو بضع عشرات - إلا ما تضمن ضيقه بالأدعياء ،  
وحملاته العنيفة على سلوكهم ، وإكباره لمن ظنهم صادقين في طريق الله ،  
وإكثاره من التمدح بأخلاقهم ، والدعوة إلى الاقتداء بهم .  
وهكذا لا يكاد يخلو كتاب له من شَنّ الحملات على هؤلاء الأدعياء ،  
وتذكيرهم بما ينبغي أن يكون عليه أرباب الطريق ، مما تمثل في شيوخه الذين  
تساموا إلى مرتبة التنزيه ، وتحاموا السقوط في حماة الرذائل .

### مقاومته لمعسكر الصوفية الداعين للجهل :

وليس أدل على الجوّ الذي عاش فيه الشعرائى ، من انقسام أرباب الطريق  
إزاء العلم في عصره ، إلى معسكرين : يبشر أحدهما بالتصوف بعد التبجر في

الدين وعلومه ، ويجهر ثانيهما باحتقار هذه الدعوة ، ويصرح بأنها امتهان  
للطريق وتعطيل لأسبابه ، وقد أشار المناوي + ١٠٣١ إلى أن زعامة الطريق ،  
قد آلت بعد الفتح العماني ببضع عشرات من السنين ، إلى رجلين يمثلان  
المعسكرين السالفين ، هما الشعراني ومحمد كريم الدين الخلوئي ، وروى ما يؤيد  
هاتين النزعتين المتضادتين ، فقال إن الشعراني قد سأل الخلوئي عن مسألة في  
الوضوء ، فأعلن هذا جهله بها ، رغم ما أصاب من شهرة بين الناس والأمراء ،  
فقال له الشعراني إنك لا تصير فقيرا بغير علم ، فقال الخلوئي : علمي . فشرع  
الشعراني في تعليمه ، ثم زاره مرة ثانية ليواصل تعليمه ، فأغلق هذا باب زاويته  
في وجهه .. ! فعاده مرة الثالثة ، عسى أن يتمكن من تعليمه ، فأساء الخلوئي  
استقباله ، وأغلق الباب في وجهه ، وقال لمريديه ساخرا : « إن الشيخ الشعراني  
طلب أن يجعلني فقيها وأنا صوفي » . قال الشعراني ففهمت من كلامه ، أنه  
اعتقد أنني دعوته إلى أمر فيسه نقص .. وقد أخذ الخلوئي ومريده يهزأون  
بالشعراني ، ويقولون إنه يريد أن يجعلنا فقهاء مثله (١) .. !!

وقد ندد الشعراني بهذا النوع من شيوخ الطريق في الكثير من مصنفاته ،  
فروى في معرض الحديث عن جهالة بعض مشايخ الأحمدية والبرهانية في عصره ،  
أنه سأل واحدا منهم عن قواعد الإيمان ، فقال لأدري .. ! فسأله عن فروض

(١) طبقات المناوي الكبرى ٥١٩ و + ٥٢٠ وتكميل النور السافر ٧٥٢ .



الوضوء ، فقال لا أدري .. ! فسأله عن شروط الصلاة ، فقال لا أدري .. !  
فسأله عن أركان الصلاة فقال لا أدري .. ! ويقول معلقا على هذا « مع أنه  
شيخ في زاوية يأخذ العهد ، ومثل هذا ليس شيخا بإجماع المسلمين <sup>(١)</sup> .

وروى عن أحد هؤلاء الجهال ، أنه صرح للشعراني مرة بأنه لم يقرأ في  
العلم شيئا ، ولا يعرف عن شروط الصلاة والوضوء كثيرا ولا قليلا .. ! فقال له  
الشعراني : إن تصحيح العبادات على ظاهر الكتاب والسنة ، واجب بإجماع  
المسلمين ، ومن لم يفرق بين الواجب والمنسذوب ، ولا بين الحرام والمكروه  
فهو جاهل ، والجاهل لا يجوز الاقتداء به في طريق الظاهر ولا في طريق  
الباطن . فخرس الشيخ ولم يجر جوابا ، وانقطع عن زيارة الشعراني  
بعد ذلك <sup>(٢)</sup> .. !

وقد جاهر الشعراني بأنه يناوى كل من خالف صريح الشرع أو الإجماع  
من أهل الطريق ، ولكنه لا يأخذهم بما يشاع عنهم ، ولا يعم في الاتهام  
حيث ينبغي التخصيص ، فقد تجمع الطائفة الواحدة بين الصادق والدعي ،  
وإن كان يتهم في بعض الأحيان عن غير حيطة ولا حذر ، فنراه يصرح  
بأن الملامتية والحيدرية وأكثر فقراء الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية  
والمسلمية والدسوقية خارجون على شريعة الله ، لأن أفعالهم يكذبها طريق

(١) قواعد الصوفية ١٧٦ .

(٢) نبيه المغترين ٤ .

شيوخهم ، من الصدق والزهد وصحيح الكرامات والتقى بظاهر الكتاب  
والسنة . وهو من أجل هذا يتعقب الأدياء في غير رفق ولا رحمة ، فيصب  
عليهم مطاعنه ، ويتهمم بالجهل والكفر وسوء الأدب ، ويعتبرهم أضلّ من  
الأنعام ، وأبعد عن الله من عامة الفلاحين ، لأن المشيخة على يدهم قد أصبحت  
طريقاً إلى الشحاذة والتسول ، وهانت حتى في أعين طعام الناس ، حتى أن  
الشعراني حين سأل أحد التجار ، عن السبب في عدم اجتماعه بشيخ من هؤلاء ،  
قال له إن كان هذا شيخاً فأنا شيخ مثله ، كلانا يحب الدنيا ويسعى إليها ،  
بل إنه يرحل إلى تركيا في طلبها ، ويأكل من وراء ادعائه ، فأنا أحسن  
منه حالا .. ! بل بلغت الغفلة بأحد المريدين ، أن احتاج إلى المال في تزويج  
ابنة له ، فمضى إلى أحد التجار ، ملتمساً قرضاً في نظير رهينة من شعر ، أخذه  
من رأس شيخه .. ! فقال له التاجر ساخراً متهمكاً ، لو أعطيتني أردباً من  
شعر شيخك ، ما أخذته بمجديد .. ! فأثار هذا ضحك الناس في السوق مدة  
من الزمان . وهكذا هان أرباب الطريق على الناس حتى أضحووا مشاراً  
للسخرية .

### أساليب الأدياء في الترقى إلى المشيخة :

ولم يكن هذا غريباً ، متى عرفنا أساليب هؤلاء الأدياء في اكتساب  
المشيخة ، كما يشير إليها الشعراني في مختلف كتبه ، إذ كان الرجل يذيع

بين الناس ، أنه سمع هاتفاً في يقظته أو منامه - يناديه بالشيخة ، فيلجئ نداءه ، والناس من فرط السذاجة يذعنون لدعواه ، ويتحملون في استقباله وإقامة الولائم مالا طاقة لهم به...! (١) ، أو كان يجتمع بمن لا قدم له في الطريق ، ويتلقف منه بضع كلمات في الفناء والبقاء والشطح وغيره ، مما لا يتصل بظاهر الكتاب والسنة ، ثم يرتدى جبة ويرخي عذبة ، ويستقل بنفسه شيخاً ، يستقر في مكان خرب أو نحوه ، متظاهراً بأسباب الطريق...! (٢) ، أو كان يقنع بالتظاهر بالزهد في طلب الدنيا ، والتكشف في مأكله وملبسه ، وانقطاعه للذكر والتهجد ، وإطالة الصلاة والإكثار من الصيام وقيام الليل ونحوه ، حتى إذا اطمان إليه الناس ، تقدم إليهم شيخاً ، من غير أن يسبق إلى السلوك على شيخ صادق يحيزه...! (٣) ، أو كان يدعى التامل على أحد الموقى من الأولياء ، فتصادف دعوته هوى من نفوس السذج - وما كان أكثرهم ، فإن مات خلفه ابنه أو أحد أقاربه أو مر يديه ، وهذا ما فعله شيوخ الأحمدية والبرهامية والقادرية والمطاوعة وغيرها في عصره (٤) ، ولما كان هذا كله لا يستقيم مع فهم الشعرائى للطريق وأسبابه ، ولا يتماشى مع أبسط قواعد التصوف

(١) ردع الفقراء ص ٢٠ .

(٢) تنبيه المفترين + ٤ .

(٣) قواعد الصوفية ٣ والمناب ٦٣ - ٦٤ .

(٤) لطائف المنن ج ١ ص ١٢ و ١٤ و ٢٨٩ .

في رأيه ، فقد تصدى لمهاجمة أهله ، ونال منهم شرمال ، وليست حملاته عليهم بالشيء الهين اليسير ، فقد تهيأت له الصدارة في التصوف ، حتى كان أرباب الطريق كثيراً ما يرجعون إليه كلما أشكل عليهم أمر ، أو خامرهم الشك في رأى لأحد السلف من أهله .

ولكن لا ينبغي أن تنسينا مرارة حملاته ، ملاحظه المستشرقون من أمثال « فولرز » ، من أن الرجل كان واسع الصدر ، متساحاً حتى مع المسيحيين واليهود ، في عصر سادته التعصب الديني ، بل كان يثني على تواضع هؤلاء الذميين ، ويضعهم مثلاً أعلى للمسلمين ، ويحذر من التورط في التكفير ، مخافة الله . . . . ورغم أنه كان شافعي المذهب ، فقد وضع « الميزان » و « كشف الغمة » ليوفق فيهما بين المذاهب الأربعة ، ووضع « اليواقيت » للتوفيق بين أهل الذوق والكشف ، - رجال التصوف - وأهل الاستدلال والفكر - علماء الدين - وليس أدل من هذا كله ، على رحابة صدره وسخاء تسامحه<sup>(١)</sup> .

على أننا لا نجد في حملاته على أقرانه من شيوخ الطريق في زمنه ، مدعاة لدهشة ، فلو خلت حياتهم من المطاعن ، لكان حسبه تطامعه إلى الظفر

---

(١) Vollers في دائرة معارف الدين والأخلاق .

بالسيادة الروحية في عصره ، وحرصه على أن يبق التصوف إنكار خصومه ،  
مبرراً لهذه الحملات ... ! ولكن هذا وحده ليس مثار ضيقه وهجومه ، فإن  
روح العصر ، قد تكفلت بإثارة المخلصين من أهل الطريق ، ودفعتهم إلى  
معاداة الأعداء - ولو كان هؤلاء المخلصون دعاة سلام ووثام - كما كان  
الشعراني نفسه .. !

## الفصل الثالث

الشعراني مع المريدين والمجاورين

### التصوف والغرائز الإنسانية :

الطريق عند أهله ، محاولة ترمي إلى تعطيل بعض الغرائز عن أداء وظيفتها ، قهراً للجسم ، وتسامياً إلى العزوف عن مطامع الدنيا ، بالتربية الروحية الشاقة ، رغبة في طمس الذاتية والأنية ، وإغراء بالتفاني في حب الله ، واتباع ما يرضيه وتجنب ما يفضبه ، من غير طمع في ثوابه ، أو خشية من عقابه ، ولكن بعض الصوفية قد استجابوا لنداء فطرتهم في توكيد النفس وحب السيطرة Self - Assertion وتجلت هذه الظاهرة أوضح ما تكون ، في موقفهم إزاء المريدين والمجاورين في زواياهم ، فجمعوه على الحب والطاعة ، وجعلوا أنفسهم وسطاء بينهم وبين الله ، الذي تتسامى إليه سبحات كل متصوف ، وفي سبيل تحقيقهم لهذه الغاية ، حطموا شخصية المريد وأهدروا كرامته ، فسلبوه أبسط حقوقه ، وأثقلوه بالواجبات والتبعات ، فما موقف الشعراني من ذلك . . . . ؟

## الحب عند المريدين:

جعل الشعراني أولى مراتب هذه الغاية ، تفانى المريد في حب شيخه ، حتى يلذ لحدِيثه وكأنه في حال جماع ... ! ويؤثر مرضاته على مرضاة زوجته وأولاده ، والاستجابة لرغباته وشهواته ، لأن محبة الشيخ مرتبة إدمان ، يترقى منها المريد إلى محبة الله ، ومن دلالات الطاعة الانصياع لأوامره ، ولو اقتضته القيام بأحط الأعمال وأشق الخدمات ، أو كلفته هنيئته في بيته ، فلا يتردد في العزوف عما أحل الله من متع ، ولا يتلصق في تطليق زوجته إن أمره بذلك شيخه ، فيمثل هذه الطاعة يكون السلوك المرجى ..!

والشيخ وسيط المريد إلى ربه ، ومن هذا وجبت محبة المريد لشيخه ، وإلا كان منافقاً ، مكانه الدرك الأسفل من النار ، والمريد الصادق تغنيه محبة الشيخ عن الطعام أياماً ، لأن النظر إليه يسد جوعته ، وكثيراً ما كف ابن عربي عن الطعام ، استغناءً بمحبته لشيخه - أبي مدين - ، وعلى هذا كان الصادقون من أهل التصوف ، والحب متى صدق ، شغل صاحبه عن يحب ، فقد وفدت « ليلي » على مجنونها ذات يوم ، وهو يناديها متلهفاً ، فأقرته السلام وأنباته بأنها ليلي معبودته ، فلم يعبا بوجودها وقال لها : إليك عني ، فقد شغلني عنك ما أحمله لك من صادق الحب ... ! والحب الصادق

يلهب القلب حتى ليذيب ما يمسه من ثلج ، وقد روى ابن عربي - فيما يذكر  
الشعراني - عن محب أنه دخل على شيخ يتكلم في المحبة ، فما زال هذا المحب  
ينحل ويذوب ويسيل عرقا ، حتى تحلل جسمه بين يدي الشيخ واستحال  
بركة ماء ... ! وأقبل بعض أصحابه واستفسروا عنه ، فأشار الشيخ إلى الماء  
قائلا : هوذا ... ! فأدهشهم أمره <sup>(١)</sup> .

### آداب المريدين :

ويحرص الشعراني على وضع آداب ينثرها في شتى مؤلفاته ، ويلزم بها  
المريدين ، فالمرید الذي يبلغ هذه المرتبة في محبة شيخه ، لا يباح له أن يشركه  
أحدًا من أقرانه ، ومن الحق غفران مثل هذه الخطيئة ، إذ لم يقع لأحد من  
المريدين أن يسلك الطريق على يد شيخين ، ثم يصل بعد هذا إلى مقامات  
الرجال ، ومن هنا كان على المرید ، أن يؤمن بأن شيخه أقدر الناس جميعًا على  
تربيته ، وأن يتحاشى الاستعاع إلى وشاية أو ملامة توجه إلى شيخه ، ولو  
أجمع الناس على صدقها <sup>(٢)</sup> ، فإن تهيأت له هذه المرتبة ، لزم شيخه وأبى أن  
يفادر زاويته إلى غيرها ، لاسيما وأن التنقل في الزوايا ، يشي برغبته في

(١) قواعد الصوفية ١١٦ - ٧ و ١١٩ - ١٢٠ و ١٢٦ و ١٩٣ و ٢٠٧ والعلوم  
المشهوره ص ٢٣ .

(٢) قواعد الصوفية ١٥٤ - ١٥٥ و ٢١٦ و ٢٣١ .



التمتع بأطياب العيش ، والإبقاء على مثل هذا المرید خطيئة ، وقد كان إسرافاً من الشاذلي ، أن يبيح لمريديه التحول إلى غيره ، متى بدا لهم ذلك ، لأن هذا لا يجوز إلا مع أكابر الصحابة الذين يفرقون بين المقامات ، أما ضعفاء الحال ، فأشبهه ما يكونون « بالبهائم السارحة »<sup>(١)</sup> ولهذا وُكِّل إلى شيوخهم النظر في منفعتهم ، وإلزامهم باتباع ما يصدرون إليهم من أوامر . ومن هنا حرمت على المرید زيارته لشيوخ عصره ، ولو طابت علاقتهم بشيخه<sup>(٢)</sup> ومكفد من الزيارة مریدون - فيما يقول ابن عربي - فارقوا شيوخهم ثم تهجموا على حرمتهم وتولواهم بالطنع والتشهير ، مدعين أنهم لو وجدوا فيهم خيراً ، لما فارقوا صحبتهم ، ولهذا يأبى الصادقون من الأولياء ، إعطاء عهد لمرید نكث عهد شيخه .

وليس للمرید أن يجادل شيخه ، أو يلح في سؤاله ومناقشته ، أو يستفسر عن سر حنقه عليه وضيقة به ، أو إيثار غيره عليه أو طرده من زاويته<sup>(٣)</sup> ، فإن جالس شيخه ، وجب أن يكف عن كل حديث حتى يأذن له في ذلك ، وعليه ألا يقدم على زواج أو سفر ، أو يعتزم النهوض بمشروع أو غيره ، حتى

(١) البحر المورود ٣٥٤ و ٢٩٥ .

(٢) المصدر السالف ٣٠٥ و ٢١٥ .

(٣) قواعد الصوفية ١٣٠ و ١٣٢ و ١٥٩ و ٢١٥ و ٢٣٠ - والبحر المورود ٣٣٦ .

يستأذنه في ذلك . فإن أقدم على ارتكاب معصية ، سارع إلى الاعتراف على يديه<sup>(١)</sup> ، وقبول ما يفرضه من وجوه التكفير .<sup>(٢)</sup>

وما أصدق « أبا العباس المرسي » الذي حتمَّ على الشيوخ أن يتفقدوا حال مرديهم ، وأوجب على المريدين إخبار شيوخهم بما تضمه بواطنهم ، لأن « الأستاذ كالطبيب ، وحال المريد كالعورة ، قد تبدو للطبيب لضرورة التداوي » والمريد الذي يستحي أن يكشف شيخه بأحواله ، يقيم الدليل على أنه غريب عن شيخه ، لم يمتزج بروحه بعد<sup>(٣)</sup> !

ومن أخطأه التوفيق من المريدين في اتباع هذه الآداب كان جزاؤه « الحرمان » من صحبة شيخه<sup>(٤)</sup> ، والطرْد من زاويته ، وقد كان الشعراني يفاخر بطاعة مرديه له ، وامتثالهم أوامره ، بالغاً ما بلغ الإجحاف على ظاهرها ، حتى كان إذا عتب على أحدهم زلة له ، ألجم لسانه ولم يجر جواباً<sup>(٥)</sup> ، بل كان - فيما يقول - يربى خاصة أصحابه بالنظر ، من غير لفظ ولا إشارة ، شأن الكُمل من شيوخ الطريق ، من أمثال الشاذلي وأبي العباس المرسي والمتبولي والخواص<sup>(٦)</sup> . والآداب التي يلزم بها الشعراني مرديه ، كثيرة لا يتسع لها هذا المقام الضيق .

(١) قواعد الصوفية ١٦٩ . (٢) الجواهر والدرر ٢٧٩ .

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٤ (٤) قواعد الصوفية ٢٣٢ .

(٥) لطائف المنن ج ١ ص ١٨ . (٦) المصدر السالف ١٩١ .

### مهاجمته لاستخفاف المريدين بتقاليد الطريق :

ولنأنا نشير - بعدما أسلفناه من فصول هذا الكتاب - إلى أن الكثيرين من المريدين والمجاورين ، كان يعوزهم الأخلص لطريق الله ، والصدق في السلوك إلى حضرته ، وتدفعهم الرغبة في تحقيق منافعهم الشخصية ، إلى التظاهر بالزهد والورع ، وقد صرح الشعراني - في البحر المورود وغيره من كتبه - بأن الفقراء الذين كانوا يقيمون في الزوايا طاعمين كاسين ، لا يجتلمون من نفقات عيشتهم كثيراً ولا قليلاً ، وكثيراً ما كانوا يجمعون المال ويكنزون الذهب والفضة<sup>(١)</sup> ، فإذا وزعت في الزاوية هدايا المحسنين ، خفوا إليها سراعا ، وتزاحموا على موزعيها من النقباء ، حتى يوقعوهم أرضاً ، ويأخذوا ما بأيديهم غصبا ، ويلوذون بها فراراً<sup>(٢)</sup> . . . !

وقد قال الشعراني عنهم في لهجة الغاضب الحق : ومن قواعد الرهبان ألا يدخروا للغد قوتا ، وألا يمسكوا فضة ولا ذهباً ، وقد رأى راهبا أبي النظر إلى دينار ، طلب إليه أن يفحصه ، ليتبين في أي عهد من عهود الملوك ضرب هذا الدينار ، وقال إن النظر إلى الدنيا منهي عنه عندنا . . . ! بل شهد الشعراني الرهبان ذات يوم ، وهم يدفعون أمامهم راهبا ، ويلقون به خارج

(١) البحر المورود ٣٣٨ - ٩ . (٢) المناقب الكبرى ١٠٥ .

الكنيسة ، لأنهم رأوا على عمامته نصفاً مربوطاً ، فقال لهم : أربط الدنيا مذموم عندهم . . . ؟ فقالوا له : وعند نبيكم كذلك . ويلق الشعرائى على مثل هذا فى « قواعد الصوفية » قائلا : « فإذا كان هذا حال الرهبان ، فقراء المسامين المقيمون فى الزوايا ، أولى بتركهم الدنيا ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم<sup>(١)</sup> » ، بل كان المجاورون فى الزوايا كثيراً ما يضيقون بالطعام الخشن ، حتى أوجب الشعرائى طرد هؤلاء من الزوايا من غير تردد ، عظة لغيرهم من الأدعياء ، وفى عنوانات الكثير من كتبه ، ما يشهد بضيقه بهم ومهاجمته لهم<sup>(٢)</sup> .

### مناقشة موقفه من المريدين :

على أن الشعرائى - فى بعض ما أسلفنا من آرائه - لا يقيم على دعوة واحدة ، فهو يحرم على المريد الاتصال بغير شيخه ، وإلا كان مثله مثل الرجل الذى يتخذ له إلهين ( . . . ! ) والمرأة التى تتخذ لها زوجين ، مع أنه يصرح فى الكثير من كتبه ، بما ينقض هذا الرأى ، فىأخر فى « البحر المورود » بأنه يسر متى ظهر فى بلده شيخ ، يتهاقت عليه جميع أصحابه حتى ينفضوا عنه جميعاً ، لأن استيائه من ذلك ، يشى بحبه للرياسة

(١) قواعد الصوفية ١٨٩ .

(٢) مثل « تطهير الزوايا من خبائث أهل الطوايا » مخطوط فى مكتبة عشير أُندى بتركيا .

على عباد الله<sup>(١)</sup> ، ويقول في (ردع الفقراء) إن الاقتصار في زمانه على شيخ واحد ، حجب على المرید ، ودفع لما يحتمل أن يصيبه من منافع ، لأن شيوخ عصره مقلدون ، لم يرتقوا إلى مراتب الكمل من أهل العصر السالف ، ثم يحذر من ينهض بالمشيخة من أن يدركه الغضب ، إذا عصى المرید أمره ، أو لم يذعن للتسليم بمشيخته ، وكرر هذا المعنى في « آداب العبودية<sup>(٢)</sup> » ، وصرح في « العهود المحمدية » بأن الشيخ الذي يغضبه انصراف مریده عنه ، إلى غيره من الشيوخ ، محتاج إلى أن يسلك على يد شيخ آخر ، يرتقى به إلى مرتبة الإخلاص<sup>(٣)</sup> .

وبينا نراه يبيح للشيخ ، أن يعمل على إفساد المرید على شيخه<sup>(٤)</sup> ، إذبنا نلاحظ أنه يقول إن الصادقين من شيوخ الطريق ، لا يأخذون العهد على مرید ، نكث عهد شيخه<sup>(٥)</sup> ، بل كان من عادة الشعراني - فيما يقول عن نفسه - ألا يربى مریداً ينتمى إلى غيره<sup>(٦)</sup> .

وقد جرت هاتان الدعوتان المتضادتان في كتبه جنباً إلى جنب . . !  
فلا سبيل إلى رد التناقض إلى اختلاف الزمان ، الذي صدرت فيه كل

(١) البحر المورود ص ١٦٠ . (٢) ردع الفقراء ٢٣ وآداب العبودية ١٥ .

(٣) العهود المحمدية ١٢٩ . (٤) البحر المورود ٢٩٥ .

(٥) بهجة النفوس ١٥٦ . (٦) المناقب الكبرى ١٠١ - ٢ .

دعوة منهما ، ولعل مرجعها إلى الحاجة إلى رسم الخطة الدقيقة ، التي تهيمن على تفكير صاحبها ، أو عدم قدرة العقل على التزام ما يقتضيه المنطق السليم ، والاندفاع إلى تأييد الدعوة ، في ظروف وحالات نفسية تخالف ما أحاطه منها ، عند التعرض للدعوة الثانية ، ومثل هذا لا يحتاج إلى تفاوت عظيم في الزمان ، وتكفي فيه الفترة التي يقضيها في تصنيف مؤلف له ، وربما قيل - مع توافر سوء الظن به - إن الدعوة الأولى موجهة إلى مريديه ، مخافة أن ينصرفوا عنه ، والثانية موجهة إلى مريدى غيره ، إغراء لهم على التفكير في تغيير شيوخهم . . ! وهذا الافتراض مرهون بالتسليم بأن كتبه كانت تصل إلى المجاورين في غير زاويته .

### صلة دعوته بالمسيحية :

على أن موقف الشعرائي - وغيره من شيوخ التصوف الإسلامي - نقطة دقيقة لا ينبغي أن تمر بها دون أن نقف عندها قليلا :

إنه يعتبر نفسه وسيطا بين الله ومريديه ، ويوفر لنفسه سلطة واسعة النطاق ، وهذا شيء لا يساير تعاليم الإسلام - فيما لاحظ المستشرقون أنفسهم - من أمثال كارادى قو<sup>(١)</sup> - عندما عرضوا لهذا الموقف عند صوفية الإسلام -

---

(١) مادة Wali في دائرة المعارف الإسلامية .

وقد كتب في نفى السُلطة والوساطة عن الإسلام ، الكثيرون من أئمتهم ،  
 ومن المحدثين الأفغانى ومحمد عبده والكواكبى وعبد العزيز جاويز  
 وفريد وجدى وغيرهم<sup>(١)</sup> ، وذهب البعض إلى أن شيوخ الطريق قد  
 استعاروا سلطنة الرؤساء من المسيحية ، فقد جاء في إنجيل متى ١٦ : ١٩  
 « أعطيتك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون  
 مربوطاً في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات »  
 وتؤكد هذا في نفس الإنجيل ١٨ : ١٨ « الحق أقول لكم ، كل ما تربطه  
 على الأرض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلونه على الأرض يكون  
 محلولاً في السماء » وإن كان الكثيرون من المسيحيين اليوم ، لا يدعون  
 لتفسير مثل هذه الآيات ، على النحو الذى ذكرناه ، وينازعون في تسليم  
 المسيحية بسُلطة الرؤساء ، ولكن المظنون أن بعض العبادات في المسيحية ،  
 يتمثل فيها القيس وسيطا حتى ليفسدها غيابها عنها ، وبهذا يبدو كأنه  
 وكيل عن الله في أرضه . وقد كاد شيوخ الصوفية في الإسلام أن يكونوا  
 كذلك ، وقد رأينا كيف شبه الشعراى إشراك المريء بشيخه ، بإشراك

(١) بالترتيب : الإسلام والرد على منتقديه ٨٧ والإسلام والنصرانية ٥٦ و ١١٨  
 و ١٣٦ وطبائع الاستبداد ١٧ ( وفيه يرى أن المسلمين استعاروا سلطنة الرؤساء من  
 المسيحيين ) - والإسلام دين العطرة ٥٤ وغيرها ، وله أيضا القرآت وتحرير الفكر  
 البشرى ، والمؤلف الأخير : المدينة والإسلام ٥٧ وغيرها .

الرجل بإلهه . . . ! وأوجب على المريدين أن يعترف بمعاصيه وخطاياها لدى شيخه، وهذا هو نفسه « الاعتراف » كما يبدو عند بعض الطوائف المسيحية .

على أننا لا نعرف كيف اتصل الشعراني بالمسيحية وتقاليدها، وإن كنا قد لاحظنا أنه يتحدث عن الرهبان والكنائس وزهدهم في مطالب الدنيا، وربما استعار هذه النزعة من كتب غيره من صوفية الإسلام، الذين اتصلوا بالتقاليد المسيحية كالفرازي، الذي يقال إنه أول من حاول مزج تعاليم الديانتين، مزجاً مقصوداً متظلاً قائماً على النظر الفلسفي، منذ مر بيوت المقدس، واتصل بالمسيحية في مهدها، وواجه تقاليدها<sup>(١)</sup>، وربما اهتدى الشعراني إلى هذه النزعة وحده، من غير أن يأخذها عن سابق أو معاصر، فإن التمادي في طلب الزهد، والعيش شيخاً على مريدين، ونحو هذا من مظاهر الجو الذي كان الشعراني يحيا فيه، كنفيل بأن يهتدى إلى مواطن هذه النزعة. على أن إزام المريدين بالإسراف في حب شيخه، والتفاني في طاعته، وإن حطم شخصيته، ولأشئ إرادته، فإنه يغريه من غير شك بالافتداء بشيخه في حب الله، والاستجابة لأوامره ونواهيته. ومن هنا أفادت الحجة في تحقيق السلوك الصادق.

(١) انظر التصوف عند العرب ص ٥٥ - ٦ والأستاذ ماسينيون, Massignon  
les Evangiles Selon Al Ghazali



## البَصَلُ الرَّابِعُ

الشعراني مع حكام مصر

غطرتهم على الشعب وذلّتهم أمام الصوفية:

فسد عصر السلاطين في أواخره، وعظم الخطب على الناس واشتد بأسهم، من فرط ما نالهم من ضروب الظلم والفاقة، فجنحوا إلى استقبال الحكم التركي، والأمل يشيع فيهم طولا وعرضا، وسرعان ما أدركوا منذ وطئت أقدام الترك أرض مصر، أن الحكم الجديد يربي سوءاً على القديم الذي أنقض ظهورهم، إذ استبيحت فيه الحرمات، وديست الحقوق والحريات، واستهان الجنود بنفوس الناس وأموالهم وأعراضهم، حتى كانوا يخطفون النساء والعلماء من الشوارع، واقتحمت المتاجر، وفرضت على الفلاحين الآتاوات من غير مبرر، والمصري يذعن على كره منه لهذا العبث الغليظ... ولكن جبروت هؤلاء المتعطرسين على أفراد الشعب، كان كثيراً

ما يذوب وينحل أمام شيوخ الطريق ، إذ كانوا يعيشون في جو تسوده الجهالة ، ويملاؤه الجزع من خفي المؤامرات والدسائس ، ومن شأن هذا القلق أن يدفع أصحابه إلى التماس الطمأنينة وراء الدنيا التي يعيشون فيها ، فيحملهم على الإيمان بالله والزلفى إلى المقر بين من أوليائه .

وقد كان هذا فوق ما عرف عن الأتراك من ميل إلى الدروشة ، وإيمان بصدق الولاية عند أهلها ، وقد هيأتهم لهذا عقلية المحارب الذي يحمل رأسه على كفه أنى ذهب ، ولا يجد من وقته متسعا لتثقيف نفسه وتنمية مداركه - إن نازعته النفس إلى ذلك - ومن قضى حياته وسط صليل السيوف ودوى الرصاص ، فزرع إلى حياة الأمن والطمأنينة وراء دنياه ، وركن إلى كل من استطاع أن يشبع تصوراته ، ويسلمه إلى جنات خياله !... ومن هنا بدت المفارقات الطريفة بين غطرستهم على الشعب ، وذلتهم أمام أرباب الطريق ، إذ هالم ماشاع عن هؤلاء من قدرة على إتيان الكرامات وخوارق العادات ، والتصرف في مصائر الناس وأقدارهم نفعاً وضرراً !

### استخفاف الشعرائى بالحكام :

وقد أشرنا من قبل إلى موقف الشعرائى منهم ، منذ بدء حياته فى مجال الطريق ، وكيف كان يأتى أن يقبل ما يقدمونه إليه من المسال والهدايا ،

حتى إذا أُلحوا ولجوا في الطلب ، تقبل المال بيده ، وطوح به على مرأى منهم  
ومشهد من الناس ... .. ! وقد رفض أن يلتمس له بعضهم معونة السلطان  
في تركيا ، وتعاضم - في صدر شبابه على الأقل - على هؤلاء الجبابرة . ومن  
شواهد هذا أنه لما اعتزم الوزير الأعظم على باشا الرحيل إلى تركيا ، فقال  
للشعراني : إنا مقربون إلى السلطان ، فهل لك حاجة عنده ... ! فأجابته  
الشعراني على الفور قائلا له : ألك حاجة عند الله ... ؟ اننا مقربون إلى  
حضرتة ... ! فسكت الوزير ولم يحرج جوابا<sup>(١)</sup> .

### اعتقاد الحكماء في ولايته :

وقد استطارت سمعة الشعراني في قدرته على إيذاء المنكرين عليه  
والشاكين في صدق ولايته ، وتحقق هؤلاء الجبابرة من صحة ما تسمعوا به ،  
فقد غضب أحد نواب السلطان على ناظر النظار - فيما يقول صاحب المناقب -  
وإن كنا قد علمنا بأن هذه الوظيفة لا وجود لها في هذا العصر - وأضر له  
السوء ، فاخترق الناظر اتقاء لشره ، فاتصل به الشعراني ليعلمه الأدب والطاعة  
مع أولى الأمر منه ، فوشى به عند الباشا أحد حساده ، وأوهمه بأن الشعراني  
يتآمر على عزله ، وتولية خصمه مكانه ، وأذعن الباشا لما سمع ، وأخذ يهدد

ويتوعد ، وإذ به يتلقى أمرا من السلطان بالرحيل عن مصر على مجمل . . . !  
فأشار عليه بعض جلسائه بأن يترضى الشعرانى ، ويستغفره عما ارتكب في أقم  
حقه من معصية ، فامتثل مشورته ، وإذابه يتلقى من السلطان أمرا بالعفو عنه أفس  
وإبقائه في مصر . . . ! فامتلاً إيماناً بالشعرانى وقدرته على الإيذاء ، حتى كان المر  
الشعرانى إذا زاره ، خف لاستقباله وأكرم وفادته ، وأجلسه على مقعد مكسو  
بالجوخ ، وجلس على كئيب منه على مقعد متواضع ، وأنصت لشفاعاته ،  
وبادر إلى قبولها من غير تردد<sup>(١)</sup> .

وربما قيل في تفسير هذه الحادثة ، ان صدور الأوامر بعزل الموظفين  
كباراً وصغاراً ، والتسرع في إلغاء هذه الأوامر بإصدار ما يناقضها ، كان  
ظاهرة مألوفة في هذه الأيام ، التي كان الاتصال بالسلطان فيها حقاً مشتركاً  
للسلطات الثلاث : الوالى وضباط الجنود وأمراء المماليك ، مما أشاع ظاهرة  
الدرس والاعتياب والتأمر ، وقد تهيم المصادفات ما يغرى برد هذه التصرفات  
إلى أولياء الله . . . ! ولكن الذى يعيننا من رواية هذه الحادثة وأمثالها مما  
أشيع عن الشعرانى ، شيوع الحديث عنها ، واختلاق ما قد يكبرها في وهم  
الناس ، وأثر هذا في موقف الأمراء ومن إليهم من الحكام .

وقد أسلفنا الإشارة إلى موقف القاضى محي الدين الأرزبكي ، حين

شاد مسجد الشعراني ، وما أصاب الأمير الذي هم باغتصاب الأرض التي  
 في أقيم المسجد فوقها ، وموقف حسن بك الصنjqق من حب الشعراني حبا  
 منه أفسد عليه حياته ، ودفعه إلى التجرد عن أملاكه ، والانتطاع لخدمة  
 ن المردين في زاوية شيخه .. ! وغير هذا مما يدخل في هذا الباب ..  
 بل كان الأمراء يلتمسون عنده أن يوصى بهم خيراً .. ! كتب مرة  
 ، يوصى أصحاب النوبة بنواحي العجم والروم ، بالأمير جاتم الحزراوى ، وقد  
 استدعى إلى استامبول ، وأخذ الأمير وصيته وطواها في رأسه .. ! ويتواضع  
 الشعراني فيقول إن هذا كان سوء أدب منه ، فأرسل الشيخ محسن البرلسى  
 المدفون على كئب من الإمام الشافعى ، ينهه إلى سوء ما فعل ، ويقول له  
 « الناس في عينك كالقش ، مابق أحد في البلده شوارب إلا أنت ، تكاتب  
 أصحاب النوبة بغير إذن من أصحاب البلده .. ! ويعقب الشعراني على هذا  
 قائلاً ، إنه استغفر ربه من سوء ما فعل<sup>(١)</sup> .. ! والشيخ محسن السالف  
 الذكر ، مات سنة نيف وأربعين وتسعمائة للهجرة ، أى أن الشعراني كان في  
 مطلع كهولته ، ومع هذا تهبأ له هذا النفوذ كله .

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٤ والكهولة تكون بعد الثلاثين ، وقيل يبلغ  
 الأربعين .

## موقف الدولة العثمانية من شيوخ الطريق :

بل إن الدولة العثمانية نفسها ، كانت تحشى بأس الشعرائى ومن إليه ، من أصحاب النفوذ الروحى من صوفية هذا العصر ، فقد كانت الإشاعة تقول إن الجنود قد رغبوا فى أواخر عصر المالميك فى خلع « الغورى » ، من فرط ضيقهم ، بظلمه ، فذهبوا إلى جلال الدين البكرى ، وأرادوا أن يقيموه خليفة على المسامين فى مصر ، لأن جده - الصديق كان خليفة عليهم من قبل . . ! وروى التابلسى أن السلطان سليم حين غزا مصر ، دخلها و « جلال الدين البكرى » آخذ بزمامه ، و « أبو السعود الجارحى » عن يمينه ، و « الدشطوطى » عن يساره ، وقيل إنهم هم الذين جاءوا به من الشام ، وأدخلوه مصر وهم مشاة فى ركابه<sup>(١)</sup> ، وربما أثارت هذه الإشاعات قلق الدولة العثمانية ، حتى خشيت على سلطانها فى مصر ، من نفوذ هؤلاء الأولياء .. ! واضطرت إلى إصدار قانون تعلن فيه بأن من تظاهر بصفات الملوك ، وعارض أركان الدولة فيما يفعلون ، كان مصيره السجن أو النفى أو الإعدام<sup>(٢)</sup> .. ! وقد أشار الشعرائى إلى هذا القانون ، والجزع منه لا يخفى فى حديثه عنه .. ! ولعل فرط جزعه من هذا القانون ، هو الذى دفعه إلى الإسراف فى الدعوة لطاعة الحكام ،

(١) رحلة التابلسى ١٣١ . (٢) البحر المورود ٣٢٨ .

وامثال أوامرهم وعدم التعرض لمتاوتهم ، ولو كانت أعمالهم ظالماً صارخاً - كما  
سنعرف عند الحديث على موقفه من الحياة السياسية .

### حسن علاقته بالحكام :

وإذا كان من الحق أن يقال إن هؤلاء الجبابرة ، قد دانوا بطاعة شيوخ  
الطريق ، حباً لهم وإيماناً بولايتهم ، وخشية من قدرتهم على إيقاع الأذى بهم ،  
فإن الحق كذلك أن يقال إن مردّ هذه الظاهرة - في بعض الأحيان على  
الأقل - إلى استغلال نفوذهم في تحسين سمعتهم عن عامة الناس ، والاستعانة  
بهم على إيقاع الظلم بالشعب ، مع الاطمئنان إلى نتائج تصرفاتهم .. ! وربما  
أمكننا أن نعزو إلى هذه العلة ، بعض ما كان يقدم هؤلاء الحكام لشيوخ  
الطريق من عطايا ، وما يجسونه على زواياهم من أوقاف ، فوق الحرص على  
الاستجابة لشفاعاتهم ، وتحقيق كل مطالبهم . وقد كان من أولى واجباتهم في  
مصر ، جمع الضرائب ، وليس العمل على إصلاح البلد وترقية شعبه ، ومع  
ذلك كانوا يعفون أملاك الصوفية من هذه الضرائب ، وقد فاخر الشعراي  
بأن أوقاف زاويته بآمن من ظلمة الحكام ، فلا يعارضه أو يتعرض له أحد  
منهم ، رغم أنه لا يحمل مرسوماً من السلطان بهذا الأمان<sup>(١)</sup> !

(١) لطائف المتن ج ١ ص ١٨ و ٦٢ وعلى مبارك ج ١٤ ص ١١٠ والمناب ١٠٧ .

وفي ولاية علي باشا الوزير ، سنة نيف وخمسين وتسعمائة ، اكتشف  
أولو الأمر ، فساد الوقف الذي حُبس على زاويته وذريته ، ولكن سرعان  
ما أرسل السلطان بعدم التعرض له ، وطلب الدعاء منه ، في مجالس ذكر  
وأوقات عبادته<sup>(١)</sup> .

وقد تعرض بعض الظلمة لذريته بعد وفاته ، فثارت ذكراه في مشواه  
حتى تسمع السلطان في تركيا بأنباء هذا العدوان ، رغم أن أحداً من ذريته  
لم يرفع إليه شكواه . . ! فأرسل بكف العدوان عنهم ، وهدد من ركب رأسه  
في مناواتهم ، باعتباره طريد القانون ، وأنذر بإهدار دمه جزاء عناده . !  
وقد كان الشعراني يفاخر بأنه لا يجرى على نهج غيره من شيوخ الطريق  
في التماس الرزق أو العون من السلطان في الآستانة ، إذ جرى نواب مصر  
وقضاها وكشافها وعمالها ومحتسبوها ومشايخ العرب فيها ، على تهيب الاعتداء  
على أملاكه ، والامتناع عن أخذ ضريبة عنها ، تقديرأ له وإكباراً لولايته<sup>(٢)</sup> .  
وقد أثر موقفهم في الشعراني ، حتى وضع للفقراء آداباً ، ألزمهم باتباعها  
عند ما يحف لزيارتهم هؤلاء الحكام ، فأوجب حسن استقبالهم ، بالغاً ما يبلغ  
التحقيق من ظلمهم ، لأنهم نواب الله في أرضه ، يسلمهم على الآثمين من  
عباده ، جزاء ما قدموا من معاصي وذنوب . . إلى آخر ما سنعرف بالتفصيل  
عند ما نعرض موقفه من الحياة السياسية .

(١) علي مبارك ج ١٤ ص ١١٢ - ١١٣ . (٢) المناقب ١٠٧ وقارن ص ٩٦ .



## شفاعاته عند الحكام :

وإذا كان حسن العلاقات بينه وبين هؤلاء الطغاة ، قد مكن لنفوذهم بين الناس ، وردّ عنهم تمرد الذين يضيّقون بظلمهم ، فما من شك في أنه هياً للناس وجوهاً من الخير ما كانوا يصيبونها لو ساءت العلاقات بينه وبين حكامهم ، إذ كان هؤلاء قساة غلاظ الأكبّاد - على ما عرفنا - فكانت رحمة من الله أن يقبض للأمة أمثال الشعرائي ، ممن يشاركون المظلومين والمعوزين آلامهم ، ويسفرون بالخير بينهم وبين هؤلاء الطغاة ؛ وقد كان الشعرائي يصرح بأنه مستول عن كل ظلم يتسامع به ، ومطالب برد هذا الظلم قبل أن يسأل عنه يوم الحساب <sup>(١)</sup> ..! إن مثله الأعلى هو « القطب » الذي كان يحتمل عن كافة البشر ، كل ما يعانون من متاعب وآلام ، ويليه « الولي » الذي يحتمل عن أهل دائرته ، ما ينزل بهم من ضروب العذاب <sup>(٢)</sup> ، والشعرائي يفاخر بأنه يشعر بشعور المعذبين في منطقتة ، حتى ليحس إذا نزلت آلام الوضع بامرأة ، أنه يوشك أن يضع في ولادة عسيرة شاقة ، ينوء بآلامها حتى تلد المرأة ويزايدها عناؤها . . . . ! ومن أجل هذا كان يوثّر ألا يحضر قتل إنسان أو ضربه أو معاقبته ظلماً ، وألا يرى « من شنقه الولاة أو شنكواه أو خوزقوه ، أو وسطوه أو خزموه في أنفه ، أو سمروا أذنه في حائط ، أو جرسوه على ثور أو شحطوه في أذنان الخيل ، أو ضربوه في قطع الخليج . ! »

(١) العهود الحمديّة ٣٤٩ - ٣٥٠ . (٢) المصدر السالف ج ٢ ص ١٨٣ - ١٨٤ .

ومن هنا كثرت شفاعاته عند الحكام، لرفع الظلم ورد العدوان، واستعمال الرفق حتى مع الأئمن .

وقد كان هؤلاء الطغاة يسلبون الناس أموالهم ظلماً وعدواناً ، ثم يتبرعون بالكثير منه لشيوخ الطريق طواعية واختياراً .. ! وقد كان الشعراني أول أمره يعرض عن قبول هداياهم ، ويتحرمى الابتعاد عنهم ، ثم عاد إلى التلطف معهم ، وتوثيق العلاقات بهم ، وقبول ما يقدمونه إليه من هدايا وأوقاف ، واستخدام الكثير منه في وجوه البر في زاويته وخارجها ، فعمله رأى أن قبول هذه العطايا ، ليس إلا رداً لمال مسلوب ، يعود إلى أصحابه أو أقرانهم .. وسواء أصح هذا التفسير أم أخطأ ، فإن خدمات الشعراني لأهل عصره ، خليفة بكل تقدير ، لأنها جاءت في عصر افتقد فيه الشعب العدالة في الأرض ، والتمس العون عند الشعراني وأمثاله ، ممن تمثلت فيهم الزعامة في شتى صورها ، فلو ترددوا في الاستجابة لمطلبه ، والتصدى الذود عن حقوقه ، لكان خطبه شديداً ثقيلاً .

## الباب الثالث

### آراء الشيخاني

عرضنا في الباب الأول شيئاً عن سيرة حياته ، من خلال التجارب الروحية التي عاشها عالماً وصوفياً ، وتتبعنا في الباب الثاني علاقاته بمعاصريه ، من علماء الدين وشيوخ الطريق والمریدین والحكام ، ونريد أن نتبع في هذا الباب آراءه المنشورة في شتى كتبه ، وأن نعقب عليها ببيان مسلكه إزاءها ، لتبين من هذا موقفه من الحياة في شتى صورها .

فلنعرض موقفه من الحياة : العلمية والعقلية والسياسية والعملية والأخلاقية جميعاً ، لنعرف مدى تأثيره في روح عصره ، ومبلغ تأثيره بالجو الذي عاش فيه ، عسى أن يمكننا هذا من التعقيب الخاطف بتقويم شخصيته :

## الفصل الأول

آراؤه في الحياة العينية والعقلية

### موقفه من العلم الدني : ---

حرص الشعراني على إنكار التصوف مع الجهل، وتوخي الدعوة للعلم في شتى آثاره، كما عرفنا من قبل، وروى عن « الغزالي » أنه أنكر علم الظاهر في بدء دخوله الطريق، ثم عدل عن موقفه، وصرح بأن العلم مع الإخلاص . نور يكشف الحجب<sup>(١)</sup>، وقد كان « الشافعي يرى أن طلب العلم على وجه الإخلاص، أفضل من صلاة النافلة، ومن أجل هذا خصص لنومه ثلث الليل، ولمطالعة الحديث واستنباط الأحكام ثلثه الثاني، ولتهدئة قلبه الباقي، وأكبر من مذاكرة الإخوان في العلم والتهدئة بالليل؛ حتى اعتبرها مصدر حبه للبقاء في هذه الدار الفانية<sup>(٢)</sup> . . . إلى آخر ما ورد في مصنفات الشعراني من إكبار للعلم؛ وتبشير بالإقبال عليه .

---

(١) لطائف المتن ج ١ ص ٥١ . (٢) المهود الحمديّة ص ١١ .

ومع هذه الدعوة ، يحرص الشعرا في الكثير من مؤلفاته ، على الترويج لدعوة أخرى ، يبشر فيها بطلب العلم اللدني ، الذي قد يتيسر للواصلين من أهل التصوف ، فهو يقسم العلم إلى ثلاث : أولها - علم العقل ، وهو الذي يجيء بعد تأمل ونظر واطلاع ، وثانيها - علم الأحوال ، ويجيء عن طريق « الذوق » الصوفي ، ويليه علم الأسرار - ويكون وليد الإلهام . ولما كان الإلهام من شأن الأولياء والأنبياء ، فقد تعرض صاحب هذا النوع من العلم لإنكار الناس ، لأن صياغته في عبارة ، تبعده عن الأذهان ، وتفسده أمام أهل التعصب <sup>(١)</sup> .

ولا يكمل الرجل في مقام العلم عند أهل الطريق ، حتى يصل إلى هذا العلم اللدني ، الذي يكون عن الله رأساً ، من غير وساطة من نقل أو شيخ ، ومن تولى المشيخة عن اطلاع على كلام الفقهاء والصوفية ، فقد أخطأ وضل سبيلاً ، لأن من لا يكون كتابه قلبه ، لا يصلح للطريق أبداً .

### الطريق إلى العلم اللدني :

أما السبيل إلى إدراك هذا العلم ، فسلوك الطريق على يد شيخ صادق ، والتزام ما يقتضيه هذا السلوك من آداب - بالغاً ما بلغ إرهاقها للنفس ، وآية

(١) اليواقيت ج ١ ص ١٩ .

الشيخ الصادق أنه إذا لقن مريده الذكر ، أفرغ فيه العلوم الشرعية حتى لا يحتاج بعدها إلى نظر في كتاب ، فإن أدخله الخلوة أفرغ فيه العلوم الدنية ، حتى لا يدخل الخلوة جاهلا ، ويخرج عالما لا يكاد يخفى عليه شيء من وجوه العلم<sup>(١)</sup> ، فوق ما يؤتيه الله من قدرة على محاجة أهل الشريعة ، وتفنيدها ما يعتزون به من أدلة . وهذا العلم الدني ، أسمى ما يصل إليه الفقير في مراتب الترقى في المقامات ، وقد صدق البسطامي حين قال لعلماء عصره : أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لا يموت . وميزة هذا العلم على غيره ، أنه يكمل ذات صاحبه ، وينتقل معه إلى أخراه . . . !

### موازنة بين العلم الظاهر والعلم الباطن :

والشعرانى حريص على إثارة هذا العلم على علم الظاهر ، لأن هذا نطلبه لوجه الحاجة إليه فى دنيانا الحاضرة ، ومن هنا وجب على الفقير ألا يطيل النظر إليه ، وفى وسعه أن يحيط علما بكافة ما يحتاج إلى الإلمام به من أحكام الشريعة فى نحو شهر . . . ! ولهذا أخطأ الفقهاء فى قضاء عمرهم ، فى دراسة الأحكام التى استنبطها البعض من كلام غيره من حملة الشريعة ، وهذا

(١) الجوهر المصون ٣ - ٤ و ٧ و ١٠ و ١٧ و ٣٩ و درر النواص ٧٢ - ٣ وقواعد الصوفية ٣٠ والجواهر والدرر ١٠٩ . . . الخ .

أمر لم يكف الله أحداً به ، لأن قائله غير منزّه عن الخطأ ، إلا إن أجمع العلماء على صحة ما يقول<sup>(١)</sup> ، أما العلم الدني ، فإنه لاغنى عنه لإنسان ما ، وليس له حد يقف الإنسان عنده إذا بلغه ، وينحصر في نوعين من العلم ، هما العلم بالله والعلم بمواطن الآخرة ، لأن الجهل قد يؤدي إلى إنكار ما يراه الإنسان من تجليات ، حتى يقول الجاهل للحق إذا تجلّى له : أعوذ بالله منك ! والعلم بهما يهيئ الإنسان لكل موطن ، أما سبيل إدراكهما والظفر من نورهما بأوفى نصيب ، فالخلوة والرياضة والمشاهدة والجذب الإلهي<sup>(٢)</sup> .

### علاقة الأمية بالعلم الدني:

بل إن المتتبع لآراء الشعرائى المنتثرة في مصنفاته ، يلاحظ أنه لا يقنع بإثارة علم الباطن على علم الظاهر ، وإنما يعرض لمهاجمة العلوم التي تجبى اكتساباً بعد نظر وإطلاع ، وهو في هذا مسير لمنطقه ، وإن بدت ألفاظ الدعوتين على تناقض ملحوظ ، لأن العلم الصحيح ، إذا كان هبة من الله لعبده عن غير وساطة ، فالأمية لا تعوق اكتسابه ، والجهل بالقراءة والكتابة لا يحول دون الاتصال بالله ، واستقاء العلم من معينه ، وقد أخذ الشعرائى الطارىق على رجل كان من أساطين التصوف في عصره - إن لم يكن أكبرهم

(١) الجواهر والدرر ٢٧١ - ٢ . (٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ٥ وآداب العبودية

١٤ - ١٦ في باب طلب العلم النافع .

خطراً - هو « الخواص » ؛ وقد كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب<sup>(١)</sup> ؛ وما كانت هذه الحادثة فذة في تاريخ الفكر الصوفي ، فقد كان بعض أفذاذ الصوفية من أمثال نجم الدين الكرخي وأبي مدين المغربي ومحمد وفا أميين فيما يروى الشعراني ، ولكن كلامهم في الطريق قد أعجز العلماء وأثار دهشتهم .

بل لقد كان شيوخ الطريق ، يطلبون من مريديهم إذا اعتزموا أن يتصوفوا ، أن يزيلوا عن عقولهم كل ما يعلق بها من علوم الظاهر .. ! ومعنى هذا أن الأمل الذي لم يشتغل بهذه العلوم ، أقرب إلى الفتح الإلهي من الفقيه والمتكلم ، اللذين لا يلتزمان العمل بما يعلمان ، وقد خلا الغزالي بنفسه ، وتجرد عن نظره وفكره ، ولبت مقياً على ذكر الله أربعين يوماً ، عسى أن يصبح في عداد الفقراء ، ولكنه أحس بأن قوة فقيهة لا تزال عالقة به ، فأعاد الخلوة والذكر ثانية وثالثة ؛ وهو على حاله لا يذوق شيئاً من أحوال القوم ، فعلم من هذا أن الكتابة على الخوليت كالكتابة على الصفاء والطهارة<sup>(٢)</sup> . . . ! ويصرح الشعراني بأن مدخل العلوم الإلهية في القلب ، ذهاب جميع العلوم النقلية عنه ، فإذا صار فارغاً من كافة النصوص الكونية ، تهباً لنزول الواردات والعلوم الوهية ، لأنها لا تنزل إلا في الأوعية الفارغة المهيأة لقبولها ، وكما يقول المجنون في ليلى :

(١) لطائف المنن ج ١ ص ١٥ و ٤٩ و ٣٠٠ والطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٣٠ ودرر القواس ص ٢٠٠ الخ . (٢) آداب العبودية ١٥ .



أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتممكتنا<sup>(١)</sup>

### مهاجمة العلم الظاهر :

فكان من الطبيعي بعد هذا أن تهاجم العلوم المكتسبة ، وقد خصها الشعراني بهذا الهجوم مبشراً في مؤلفاته التي زودها بالدعوة للعلم والتبحر فيه ! بل روى « بروكلمان » في ثبت مؤلفاته ، كتاباً بعنوان « الدر المنظوم في زهد العلوم » - في المكتبة الخالدية بالقدس نسخة منه - والعنوان ناطق بموقفه من العلم الظاهر .

وحملاته على هذا العلم ، لا يكاد يخلو منها كتاب له ، لأن هذه العلوم الكسبية نفعها مرهون بدنينا الحاضرة ، فعلم الطب مرهون بعالم الأسقام ، والتداوى بذكر الله على موضع الألم يعنى عنه .... ! وإذا فشل هذا العلاج دل فشله على ضعف العقيدة « وهذه مسألة تشهد بها التجربة .. » وقد ساق الشعراني على صحتها كثرة من الأمثال .

أما علم الكيمياء فباطل لا محالة ، لأن أهله يلتمسون عن طريقه الظفر بما يشبه سلطة الأولياء على السكون وظواهره ، ومثل هذا أو ما يقرب منه

(١) الجواهر الكبرى ص ١ والناقب الكبرى ٥٣ .

يمكن أن يقال في السحر والكهانة والنجامة ونحوها<sup>(١)</sup> ؛ بل مضى إلى  
تحريم الفلسفة وعلومها<sup>(٢)</sup> ؛ وأعلن بأن العلم بالله واليوم الآخر يعنيننا عن كافة  
ما عرف البشر من علوم وفنون<sup>(٣)</sup> ؛ والاطلاع على معاني الكتاب والسنة  
سبيله الإكثار من النوافل ، لأن من واطب عليها أحبه الله ، وأدناه من  
حضرته ، وأطلعته على أسرار شريعته ، لأن الإنسان يؤدي الفرائض مخافة  
العقاب ، أما النوافل فيقوم بها حباً في الله ، لا خوفاً من عقابه ولا طمعاً  
في ثوابه ، وأعظم النوافل التي تدنى الإنسان من ربه ، وتفضي به إلى  
الاطلاع على أسرار شريعته ، هي الإكثار من النكاح . . . لما يترتب  
عليه من ازدواج وإنتاج ، وباب العرفان إنما يفتح لمن عمل بما قضى به ربه  
راضياً مختاراً<sup>(٤)</sup> .

والتفاضل بين الناس لا يقاس بالعلوم الظاهرة ، بل يكون بالرسالة والولاية  
ونحوها ، مما يجيء هبة من الله وحده<sup>(٥)</sup> ، ولا تنكشف الحجب لغير الفقراء ،

---

(١) العبود المحمدية ٣٧٥ وغيرها والبحر المورود ١٥٤ ( وفيها يقول إن علم الكيمياء  
لا يكون على يد من أحب الدنيا ) وقارن ص ٣٥٣ - ٤ لطائف المتن ج ١ ص ٦١ عن  
فتح المطالب . . . الخ . (٢) لطائف المتن ج ١ ص ١٣ و ٢٦٠ .  
(٣) الجواهر والدرر ٢٧١ - ٢ . (٤) لطائف المتن ج ١ ص ٥٠ - ٥١ .  
(٥) درر الغواص ٧٧ - ٧٩ .

وهم يشبهون المشرف على الممات ، لا يميل إلى الاستماع للحديث في البيوع  
والدعاوى ونحوها ، فضلا عن الاشتغال بها ، وإذا قلت له إن الرسول يقول :  
ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في الدين ، أشاح عنك بوجهه ، ورماك بغرغ  
القلب<sup>(١)</sup> ، وهل تقول للملكين إذا هما بمحاسبتك في قبرك ، ولزبانية يوم  
يحيطونك في جهنم ، دعوني فإني أحفظ أبواب المعاملات ، أو الفقه والنحو  
والأصول ، أو أقرأ بالمد والإمالة والتفخيم والترقيق .. ؟ إذ التقوى ومعرفة الله  
والكف عن أذى الناس ، هو الذي يقيك عذاب النار ، وحسب الإنسان  
أن يؤثر الأهم على المهم ، وأهل الحقيقة لا يجهلون ما يعرفه أهل الرسوم  
( الفقهاء ) من علوم ، بل يعرفون الحساب والهندسة والرياضيات والمنطق  
والعلم الطبيعي وغيره ، ولكنهم يعرفونها من حيث هي دالة على الله وكأله<sup>(٢)</sup> ،  
ومن العبث أن تطلب هذه العلوم لغير هذه الغاية ، وقد أدرك الشعراي من  
شيوخ عصره نحو سبعين شيخا ، كان منهم أساطين التصوف في أيامه ،  
كالمرصفي والشناوي وتاج الدين الذاكر ومحمد المنير وأبي السعود الجارحي وغيره ،  
فلم ير واحدا منهم يشغل نفسه ، بدراسة النحو أو تعلم الصرف ، ولم يسمع قط  
أن واحدا منهم قد أخذ هذه العلوم على أحد أهلها ، مع اتفاق العلماء وغيرهم  
على التسليم بعلمهم والاعتقاد في ولايتهم . وهم لم يؤثروا الانصراف عنها ،

(١) آداب العبودية ١٤ . (٢) المصدر السالف ١٨ .

رغبة في الهرب من صعوبة الاشتغال بها ، بل أملا في ملء وقتهم بالتهجد ولغة والتعبد ومجاهدات النفس وذكر الله .. وذلك أشق وأصعب<sup>(١)</sup> . والاطلاع في هـ على كتب التوحيد وقراءة آثار الصوفية ، غير ميسور لجميع الناس ، وقد يُفضى لآع العجز عن فهمها إلى إنكار تعاليمها ، ومن هنا كان الأفضل قصرها على العجز من الصوفية والفقهاء<sup>(٢)</sup> .

ويعنى الشعراني في هذا التيار حتى يأتي على العلوم الكسبية كلها ، لأن الاشتغال بها ، يصرف عن ذكر الله ، وتحرّى إهمالها ، رغبة في الانصراف إلى العبادة يزيل الحجب ، ويوصل إلى حضرة الله ، ويمكن من استقاء العلم من معينه ، رأسا من غير وساطة .. !

### مناقشة موقفه :

وما من شك في أن محاولة الجمع بين الدعوة لعلوم الظاهر ، والترويج لعلم الباطن ، قد أفضت به إلى التناقض الملحوظ في الكثير من كتبه ، فهو يوجب الجمع بين العلم والعمل ، ويعتبر الاشتغال بأحدهما نقصا<sup>(٣)</sup> ، ويصرح بأن كل صوفى فقيه ولاعكس ، وأن التصدر في طريق الله لا يكون إلا بعد التبخر في شريعة الله

(١) البحر المورود ٣٥٣ - ٤ . (٢) لطائف المتن ج ١ ص ٢٤٢ - ٣ والبحر

المورود ٢٧٤ . (٣) العهود المحمدية ١١ .

تهجد ولغة العرب<sup>(١)</sup> ... الخ . ويجرى على هذا النحو في سائر كتبه ، ولكننا نراه  
 في هذه الكتب نفسها يصرح بالأعلم إلا ما كان عن كشف وشهود ،  
 لا عن فكر ونظر وتخمين ، ويشبه الفقير في موقفه إزاء العلم ، بالمرضى في حال  
 النزاع ، لا يهتمل الاشتغال بالعلم الظاهر وإن حض عليه رسول الله ...  
 وينتهي إلى أن يقول : ما رأينا مريداً بلغ مبالغ الرجال بمطالعة كتاب .. !  
 وأن التصوف لا يكون قط بحفظ النقول<sup>(٢)</sup> ، لأن من لم يكن كتابه قلبه  
 لا يصلح في الطريق بتاتا ، وانتهى إلى إثارة الأمية على العلم في حال السلوك ،  
 بل صرح بأن مدخل العلوم الإلهية في القلب ، ذهاب جميع العلوم النقلية عنه ،  
 ولهذا أمره الخواص عند بدء سلوكه ببيع جميع كتبه .. ! ومع حثه على طلب  
 العلم الظاهر ، يقرر بأن الإنسان لا يحتاج لغير العلم بالله واليوم الآخر ، وهذا  
 ما لا يكتسبه غير الخلوة والرياضة والمشاهدة والجذب الألهي ونحوه . ويقرر بأن  
 التداوى باسم الله ، يغني عن الطب ، ولكنه يقول إنه يلجأ إلى طبيب مسلم  
 متى أدرکه مرض ، وأنه لا يترك التداوى كما يفعل أصحاب « الأنفس الغوية » ،  
 ويقول إن طلب العلم لا ينبغي أن يكون بقصد دنيوي ، ومع هذا يوجب على  
 المسلم تعلم رمي الشباب ، والمضاربة بالسيف والرمح ، ليكون مستعدا لرد العدو  
 عن نفسه وماله وأولاده ، والمسلمين أنى كان . ولاندرى ما علاقة هذا بالعلم بالله

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٤ . (٢) الطبقات الوسطى ص ٢٠٤ .

واليوم الآخر... ! وإن كان قد عقب بما يفيد هذا الاتصال المباشر<sup>(١)</sup> .. !  
بل لا ندري كيف تتمشى هذه الدعوة مع تبشيره بالصبر على المكاره واحتمال  
الأذى ، ومحبة الأعداء من الأشرار مع كراهية الشر... إلى آخر ما سنعرفه  
عنه عند الحديث عن آرائه في الحياة الأخلاقية .. ويطول بنا الحديث إن  
حرصنا على تعداد وجوه التناقض في كتبه ، مع ملاحظة أنها تجري معاني  
الكتاب الواحد والزمن الواحد .. !!

وإسرافه في إهمال علوم الظاهر ، مردّه إلى إسرافه في الاستخفاف بالدنيا ،  
وإمعانه في الحرص على الأخرى ، فإن الدنيا متى كانت جسرا يعبر عليه  
الإنسان إلى أخراه ، هانت في نظره مباحج الحياة ومهيبات كالمها معا . وهذا  
التفريط - فيما يبدو لنا - شطط لا يقره الإسلام ، الذي جمع بين الدنيا والآخرة  
في سمط واحد .

وحديث الشعرائي عن الآخرة ، يشبه حديث رجل الدين القح ، من  
حيث اعتبار العمل لها غاية كل حى ، ولكنه بطن حديثه عنها بروح صوفي  
يتجلى بين الحين والحين ، في الإكثار من الكلام على حب الله .

## تأثره بالغزالي :

ويستشهد الشعراى بالغزالي ، عند ما يقرر بأن العلم الظاهر يعوق العلم  
اللدى ، والواقع أن الغزالي قد أكد هذا الاتجاه الذى يجعل الإيمان  
— لا التفلسف — طريقا إلى الله .. ! وقد أشرنا من قبل إلى انتصاره للأشاعرة ،  
فى حملتهم على الفلاسفة والمعتزلة ، ومهاجمة النظريات الفلسفية ، التى انتهى  
إليها أهل التصوف فى تفسير الوجود والمعرفة ، وحملته فى «المنقذ من الضلال»  
على علماء الكلام والفلاسفة ، لاحتياج إلى تعليق ، وإذا كان قد قرر قيام  
الحدس والفيض والإلهام ، أداة لإدراك العالم الباطن ، فقد صرح مرارا بأن  
هذا لا يجيىء بآحاد أو حلول أو نحوه ، بل يكون بعد طاعة الله وعبادته  
وزهد فى الدنيا وتربية النفس ... فإن على القلب غشاوة من شهوات الجسم  
ومشاغل الدنيا ، تنقشع بتقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة ، وقطع العلائق  
كلها ، والإقبال بكنهه الهمة على الله ، حتى يرتفع حجاب الحس المرسل بين  
القلب واللوح المحفوظ ، والقلوب المشغولة بغير الله ، لاتدخلها المعرفة بجلال الله ،  
« وميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية ، فذلك لم يحرصوا  
على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون ، والبحث عن الأقاويل والأدلة»  
وقد انكشفت الحجب للأنبيا والأولياء « لا بالتعلم والدراسة » بل « بالزهد  
فى الدنيا والتبرى من علائقها وتفرغ القلب من شواغلها ... » والواصلون

إلى مرتبة العلم اللدني ، في غنى عن مشقة التحصيل وتعب التعلم ، وهذه الطريق - طريق الصوفية - درجة مختصرة من النبوة ، لا تقع بالتعلم بل بالذوق وحده ، فهي ترجع إلى تطهير محض وتصفية واستعداد وانتظار ... إلى آخر ما يقوله في الكثير من كتبه <sup>(١)</sup> .

ومن هذا نرى أن الاتجاه الذي اندفع إليه الشعراي ، في إيثار الأمية على العلم الظاهر عند التهيؤ للعلم اللدني ، هذا الاتجاه الذي تأدى منه إلى مهاجمة العلوم المكتسبة - على ما عرفنا - مرده - على وجه أخص - إلى موقف الغزالي من التفلسف والإيمان ، وإيثار الثاني على الأول طريقاً إلى الله . وقد تهيأ للشعراي نفوذ واسع النطاق على أهل عصره ، وتكفل انتشار كتبه بعده ، بإذاعة آرائه بين آلاف القراء ، فإذا كان أثرها في الحركة العلمية في مصر .. ؟ حسبنا أن نشير الآن هذه الفكرة فسنعود إلى مناقشتها بعد .

### موقفه من الثقف بالاختلاط :

ولكن إذا كان هذا موقفه من تنمية العقل ، عن طريق الاطلاع والتبجر في تفهم العلم القائم في أيامه ، فما موقفه من تثقيف العقل بعشرة الناس وخلطة أهل العلم منهم .. ؟ إن من خصائص التصوف الانقطاع للتهجد والتجرد

---

(١) عالجنا هذا في كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام » وفيه نصوص تؤيد ما نقول .



لذا ذكر ، وهذا يقتضى تجنب الاختلاط بالناس ، اتقاء لضياع الوقت في غير ما يندى إلى الله ، ومن هنا جاء إثارة الصوفية للعزلة ، والحرص على دخول الخلوة والنظر إلى عشرة الناس باعتبارها ملهأة عن الله ، ومشغلة عن ذكره ، ومن دعا منهم للاختلاط بالغير قيّد دعوته بشرط الأمان من شره <sup>(١)</sup> كما يقول الشعراني ، وإن كانت عشرة الكمّل من العارفين مباحة لمن يحسن الفهم ، وإلا كانت الخلوة أتمّ وأكمل <sup>(٢)</sup> ، وقد سئل رسول الله عن أفضل الناس ، فقال : رجل يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ، ثم رجل يعتزل الناس في بقعة من بقاع الأرض ، متفرغاً لعبادة ربه <sup>(٣)</sup> .

### موقفه من حرية النظر العقلي :

ويبدو الصوفية أحرار الفكر في مجال يسمون فيه على علماء الرسوم ، هو تأويل الكتاب وعدم الوقوف عند حرفية نصوصه ، ولكن الشعراني يحرم على مرّيديه التفكير ، وإطالة النظر رغبةً في الفهم ، إذ ينبغي - فيما يرى - أن تتأدب مع الله ولا نتكلم إلا فيما نعلم ، فنؤمن بالمتشابه من كلامه ، ولا نخوض فيه من غير تحقيق ، ولا نتجاوز ظاهر الكتاب والسنة ، وما التبس علينا فهمه وكلّنا علمه إلى الله ، فقبولنا لصفاته تعالى كما يرويها عن نفسه

(١) العبود المحمدية ٢٠٤ - ٥ . (٢) الجواهر والدرر ٢٨٢ .

(٣) الوصية النبوية ١٣ .

أولى من إذعاننا لما تتصوره عقولنا الضعيفة ، ومن أثر حكم العقل على حكم عند الله ، كان في ضلال مبين<sup>(١)</sup> ، وليكن التأويل حقا مقصورا على من فنى عن التار بشريته من العارفين ، فأطلعه الله على أسراره ، من غير نظر وتأمل ، وعلى هذا الفرو يصبح المذموم من التأويل ما جاء اكتسابا وليس فتحا إلهيا . ومن هنا وجب مسا على الفقهاء ، أن يقفوا عند ظاهر الشرع ، لا يزيدون عليه حكما واحداً ، ولا مقص يتجاوزون بتأويلهم ما حرمه الحق ، أو ما أباحه أو ما أحله أو ما أوجبه<sup>(٢)</sup> .

وقد ورد - فيما يروى الشعراني - عن ابن عربي أن من فسر القرآن برأيه فقد كفر<sup>(٣)</sup> ، وأكثر المؤولين هالكون ، ومن أول فقد جرح إيمانه<sup>(٤)</sup> . وقد صرح الشارع بأمر وسكت عن أخرى ، فالأخرى تجنب القياس أدباً ومع رسول الله ، وجرياً على نهج الصحابة والتابعين في ذلك . . ! وقد غالب جعفر الصادق وغيره على أبي حنيفة ! كثاره من القياس ، لأن أول من قاس إبليس ، ولكن الكمّل من أهل الحقيقة يستغنون عن هذا القياس بالكشف<sup>(٥)</sup> ، ويستبدلون بالفكر والاستنباط ونحوه ، استقاء العلم اليقيني الصحيح عن واهب العلوم . بل صرح الشعراني ، بأن العلم قد بلغ غايته

(١) آداب العبودية ١١ - ١٢ . (٢) الجواهر والدرر ١٣٤ - ١٣٦ .

(٣) البواقيت ج ١ ص ٢٤ .

(٤) المصدر السالف ٩٥ وقد شرح رأى ابن عربي من ص ٩٤ - ٩٧ .

(٥) الميزان ج ١ ص ١٦ .

حكماً عند زحف الترك إلى مصر (٩٢٣ هـ<sup>(١)</sup>) ، وحسب الأجيال التي تلت هذا  
عن التاريخ ، فهم ما قاله المتقدمون ، من غير استفسار عن علل الأحكام ، أو  
هذا الفرق بين بعضها والبعض الآخر . . ! والعمل عن غير فهم أحق وأرفع في  
جب مراتب الإيمان ، من العمل بعد الفهم . . ! لأن العمل لا يشرف إذا كان  
ولا مقصده إدراك علته ، بل يسمو متى كان مجرد طاعة لله واستغراق في حبه<sup>(٢)</sup> .  
إلى آخر ما يقرره الشعراني .

### دعوته في الميزان :

ومن هذا نرى أن الشعراني قد أطفأ وقدة الحماسة في طلب العلم ،  
والاطلاع على كتبه ، ولم يشجع على خلطة الناس ، وعشرة الأخيار منهم ،  
وتبيد طلاقة العقل في تأويل النصوص المقدسة ، وإباحة التأويل لأهل الحقيقة  
لا تتنافى مع هذا التقييد ، لأن تأويلهم مرده إلى الكشف ، لا إلى التفكير  
والنظر العقلي . ولكنه مع هذا كان « ينهى عن الخط على الفلاسفة » والظعن  
في علمهم ، وينفر ممن يعرض لندمهم ، ويقول إنهم عقلاء<sup>(٣)</sup> . ولا ينبغي  
أن يقال إن هذا مرده إلى حرصه على مداراتهم ، جرياً على سنته في مداراة  
الطوائف كلها ، فإن عصره كان خلواً من الفلاسفة .

(١) آداب العبودية ١٤ . (٢) قارن الجواهر والدرر ٣١٤ و ٢٧٧ .

(٣) طبقات النساوي الكبرى ج ٢ ص ٤٩٥ وتكميل التور السابق ٦٦٠ وشذرات  
الذهب ج ٨ ص ٣٧٢ .

على أننا - رغم هذا - نرى أن الحركة الصوفية في العالم الإسلامي ،  
قد خففت بعض التخفيف من شر الشلل الذي أصاب الحياة العقلية ، بعد  
انتصار أهل السنة على المشتغلين بالفلسفة والنظر العقلي بوجه عام .  
فإذا أضفنا إلى ما أسلفناه ، سعة نفوذه بين المصريين ، وعمق تأثيره في  
آلاف المريدين والمعجبين ، وتغلغل هذا التأثير في قرائه بعد عصره بأجيال ،  
أدركنا مدى مساهمته في الشلل العقلي ، والركود العلمي الذي أصاب مصر  
بعده . . .

## الفصل الثاني

### آراؤه في الحياة السياسية

المراد بالسياسة في عصره :

تولى الصوفية والفقهاء زعامة الروح والفكر في مصر ، إبان هذا العصر ، ولم يحاول الأتراك اغتصاب هذه الزعامة ، وإن حاولوا استغلالها لصالحهم ، فأنعمن من غزو مصر بابتزاز أموالها ، ونهب ما يصل إلى يدهم من مغانمها ، وحسبهم أنهم أقروا السيادة الروحية على العالم الإسلامي في الآستانة ، عندما نقلوا الخلافة إليها من مصر .

أما إدارة البلاد والدفاع عنها وحفظ الأمن فيها ، فقد كان موكولا إلى فئة واسعة الدراية بثئون القتال منذ أجيال طوال<sup>(١)</sup> ، وكانت القومية لفظا مجهول المعنى والدلالة في نفوس الناس ، إذ كان الدين وحده موضع التقدير ،

(١) محمد فريد أبو حديد وهو يمهّد لـ « سيرة السيد عمر مكرم » .

وحسب الشعب من حكامه أن يكونوا من أهل ملته ، وأن يحسنوا القيا  
بأداء واجهم ، ويتحروا العدالة في تصرفاتهم ، وكانت الدولة العثمانية لا تأذن  
لزعماء الشعب ، بالاشتراك مع نوابها في حكم البلاد - وإن استجابت لمطالب  
الكثيرين منهم - ولم يكن هذا مثار الاستياء عند الشعب ، لأنه كان يجهل على  
الدلالة التي تحملها اليوم ، القومية والجنسية وما إليها بسبيل ، بل كان الجنود والشع  
من جانبهم لا يرضون عن اشتراك المصريين في سلك الجيش . ولم تكن وظيفة سد  
الحاكم في هذا العصر ، تقتضى تعهد شئون البلد الذي يحكمه ، والاضطلاع قد  
بإصلاحه وترقية شعبه ، وإن كان الشعراى على ما سنعرف بعد - يوجب على  
الحاكم غير ذلك . وكانت مصر على ما أشرنا في مطلع الكتاب - في عزلة عن لا  
العالم الأوربى كله .

كان من الطبيعى بعد هذا ألا نلتمس في كتب الشعراى ، أثراً للاعتزاز  
بالقومية أو مهاجمة لحكم الأجانب ، أو بياننا عن السياسة الخارجية التى يحسن  
بمصر اتباعها ، أو نحو هذا مما لا تقتضيه روح العصر الذى يعيش فيه ، وحسبنا  
أن نعرف موقفه من الحاكم الذى يسيء أداء وظيفته في إدارة شئون البلاد  
أو يعجز عن ضبط الأمن فيها ، وردّ العدوان عن أهلها .

مذهبه في طاعة الحاكم الظالم:

لم يكن من عمل الحكومات في هذا العصر ، أن تهتم بالشعب وتعمل  
على توفير الرخاء له . بإصلاح مرافق الحياة عنده<sup>(١)</sup> ؛ ولكننا نلاحظ أن  
الشعراى ينص على أن وظيفة الإمام الأعظم ، القيام بمصالح المسلمين ، من  
سد الثغور وتجهيز الجيوش ، مستندا في هذا إلى قول ابن عربى : إن الله  
قد أمر بوجوب إقامة الدين ، ولا يكون ذلك إلا بوجود الإمام ؛ (القيم)  
على أنفس الناس وأهلبيهم وأموالهم ، الحريص على منع كل عدوان ، وذلك  
لا يكون إلا بوجود إمام يخافون سطوته ، ويرجعون اليه ويجتمعون عليه ، لأن  
حاجتهم إلى الشعور بالأمن ، تعجزهم عن التفرغ لإقامة الشعائر  
الدينية<sup>(٢)</sup> .

فإذا لم يقم الإمام بواجبه ، بقيت له وظيفته في الظاهر ، وإن كان يعزل  
في الواقع ، ولهذا وجب التزام طاعته ، وتجنب الطعن عليه ، مع الاعتراف  
بعجزه عن أداء واجبه ، لأن هذا الطعن اتهام لمن نصبه بالسفاهة وقصر  
النظر ، ولهذا نهى الله عن الطعن فى الملوك والخلفاء ، وطالبنا بالدعاء لهم ؛

(١) محمد شفيق غربال بك : الجترال يعقوب ١٤ والرابعى ج ١ ص ٣٢ .

(٢) اليواقيت ج ٢ ص ١١٤ - ١١٦ .

واعتبرهم الوسيط بينه وبين المحتاجين ؛ سواء أ كانوا - الملوك والخلفاء - حتى شقوا  
فاسقين أم صالحين ؛ وعدولا أم ظلمة جائرين<sup>(١)</sup> .. ومثل هذا يطبقه الشعراى وليقف  
على حكام مصر فى عهدہ ، من ولاة وأمرآء ... !!

وإصرح الشعراى بأن مقاومة الحاكم الظالم ، مجلبة للمتاعب والتفائل ،  
لأن مثل هذا الحاكم الجائر لا يغفر لأحد عصيانه ، ولا يتسامح مع من يخافه  
يعمد إلى التنديد به ، ومن هنا وجبت مداراته ، وتجنب العمل على إثارة  
حفيظته .

وقد اتبع الشعراى هذه النصيحة ، وأسرف فيها ، حتى أخذ يدعو  
الناس إلى التماس الأعذار ، للحاكم الذى يتمرد على أبسط قواعد العدالة  
ويستخف بدين البلاد وتقاليدها . . . ! ويطلبهم بمحاجة المنكرين عليه ،  
حتى يلزمهم الحجة ، فالولاية أتم نظرا من أفراد الشعب ؛ ولهذا حكمهم الله فى  
رقابهم . فكل ما يفعلونه يمكن حمله على الظن الحسن . وترجيح نفعه  
للمسلمين وإن خفى وجه النفع فيه . . . ! ولماذا لا يندفع الشعراى إلى هذه  
المزائق . . . ؟ إنه يروى فى كتبه كثرة من الشواهد ، تهض دليلا على أن  
من ينكر على ظلمة الحكام وأعوانهم . لا يلقى غير المهانة والعقاب ؛ إنهم  
يشخونه ضربا ويسومونه عذابا ، ولا يزال الأذى يصيب كل من « دخل

(١) البحر المورود ٥٤ و ٥٧ و ٩٥ و ٩٧ والعهود المحمدية ٣٧٨ .



أى شىء ليس هو من مقامه<sup>(١)</sup> . « ! فليحذر كل امرئ التدخل فيما لا يعنيه ،  
رأى وليقف عند حده . لا يتجاوزه إلى ما يجز عليه الأذى ؛ ولا يفيد كثيراً  
ولا قليلاً ... !!

ويحبذ الشعراى حرص شيوخ الطريق على تجنب الناس أيام الفتن ،  
من مخافة أن ينقل عنهم ما يثير حفيظة الحكام ، ويستشهد على ذلك بمسلك  
كبار الصالحين منهم ؛ ويشجع الفقراء على الاقتداء بهم ، وينصحهم اذا  
اجتمعوا بغيرهم ؛ وعرض أحد هؤلاء لنقد الحكام أن يهرده ويهدده  
بالطرد من مجلسهم ، إن عاد لمثل هذا العبث<sup>(٢)</sup> .

ولسكنا أشرنا من قبل ، إلى أن شيوخ الطريق يحمّلون أنفسهم تبعات  
الظلم الذى يحيق بالناس ، وقلنا إن الشعراى يعتبر نفسه ، مسئولاً عن كل  
ما يعانیه الناس فى دائرته من ألوان العذاب ، فكيف يستطيع النهوض  
بمقاومة الظلم وكف العدوان ، إن كان ينصح بمداواة الحكام ، وتلقبهم بالدفاع  
عنهم ، مع الاعتقاد فى فساد حكمهم .. ؟ لعله أراد التوفيق بين هذين الموقفين  
المتباينين ، عند ما قال إنه يتوخى التغييب عن حضور مشاهد الظلم ، حين  
يأخذ الولاة فى شنق المذنبين وشنككهم وخوزقتهم وخزمتهم فى أنوفهم<sup>(٣)</sup> ...

(١) لطائف المنن ج ٢ ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢) بهجة النفوس ١٩٤ - ٥ . (٣) اليهود المحمدية ٣٤٩ - ٣٥٠ .

إلى غير هذا مما عرفناه ، وبمثل هذه اللباقة ، يخرج الشرعاني من هذا المأزق... إن  
ثم يتم الشرعاني قصته مع الحاكم الجائر ، بتزوير صحبته ، والنص على الحاكم  
احترامه ، متى كانت الصحبة لوجه الله<sup>(١)</sup> .. ! فإن هذه الصحبة تمكن من ولم  
استجابة الشفاعات ، وتكفكف من وجوه العدوان ، فإن ركب الحاكم وال  
رأسه ، يرفض مطالب الشيخ ، وجب احتمال رفضه ، وعدم الركون إلى  
هجره<sup>(٢)</sup> .. !

هذا هو الدستور الذى يضعه الشرعاني للتعامل مع السلطان ونوابه ،  
أما مقاومة ظلمهم ، فغروراً يعترى الشيوخ ، ويجرم إلى مهاوى الخطر ، فقد  
اتهم الكازرونى + ٩٥٥ بإثارة فتنة فى حلب ، فقرر أولو الأمر نفيه إلى  
رودس<sup>(٣)</sup> . ! وقد أشرنا من قبل ، إلى القانون الذى أصدرته الدولة العثمانية ،  
بعقاب كل من عارض السلطان ، وتظاهر بصفات المملوك ، بالحبس أو النفي  
أو الإعدام<sup>(٤)</sup> ، والشرعاني يكرر الحديث عن هذا القانون ، ويبدط شواهد  
تطبيقه على شيوخ الطريق ، والجزع يقولاه ، فينساق إلى إعلان ولائه ،  
وتملق الحكام اتقاء لشرم ، حتى لياخذ فى تبرير ظلمهم ، بأن الاضطهاد فى  
أغلب الحالات ، لا يقع إلا على من أحب الدنيا وكلف برذائلها<sup>(٥)</sup> ، ويقول

(١) البحر المورود ١٢٥ . (٢) البحر المورود ١٨٨ .

(٣) الطبقات الوسطى ٢٢٦ والبحر المورود ٢٧٠ - ١ و ٣٢٨ وإطائف المتن ٦٧

و ٢٤٦ . (٤) البحر المورود ٣٢٨ . وقد ذكر النابوى فى طبقاته الكبرى س ٤٧٢

والشبلى فى تكميل النور السافر س ٢٩٣ ما يقيد تطبيق هذا القانون على صوفية مصر .

(٥) لطائف المتن ج ١ ص ٧ و ٩٦ .

إن الله هو الذي ولى على الناس الحاكم الفاسق الجائر ، فالخروج على هذا  
على الحاكم ، عصيان لله وتمرد على حكمه ، بل بالغ الشعراني في تملق هؤلاء الحكام ،  
من ولم يكتف بمطالبة الفقراء بالتزام الأدب معهم ، والقيام بحسن استقبالهم  
كم والاحتفاء بمقدمهم إذا خفوا لزيارتهم ، بل أوجب عليهم أن ينطووا على  
احترام هؤلاء الظلمة ويضربوا لهم الحب سراً وجهرأ ، حتى ليرضون إذا  
تسامعوا بمرض أصاب هؤلاء الحكام ويبرءون متى علموا بأنهم  
برئوا<sup>(١)</sup> ! ..

وفي الحق لقد كانت هذه الدعوة ، غريبة على العصر الذي عاش فيه  
الشعراني ، فإن مقاومة الظلم ، إن كانت غير ميسورة لأكثر الناس ، فإن  
إضمار الضيق والحقد ميسر للجميع ، ولا يكاف الله نفساً إلا وسعها ، وقد  
صرح الشعراني في معرض دعوته إلى أنه كان يجري على نهج شيوخه ، في  
التزام الأدب مع الحكام ، والإخلاص في صحبتهم ، والوفاء في محبتهم ،  
في حتى ليعتريه المرض إذا تسامع بمرض السلطان أو نوابه ، ولكنه يعقب على  
لهذا قائلاً إن هذا « أمر عزيز وقوعه في فقراء ذلك الزمان<sup>(٢)</sup> » ، ونهض  
بمقاومة هذه النزعة التي أفضت بأصحابها إلى الجهر باحتقار الحكام ، وبرز

(١) لطائف المتن ج ١ ص ٩٢ والبحر المورود ٢٠٥ وبهجة النفوس ٣٢ - ٣٣ وفي

غير هذا من كتبه . (٢) بهجة النفوس ٣٢ - ٣٣ .

مسلكه بأن الفقراء والناس يتساوون مع هؤلاء الظلمة في الفسق والجور والفساد ، فإذا قر الفقير أميراً ، كان معنى هذا أن ظالماً يحترم ظالماً<sup>(١)</sup> ... ! وهذا بالإضافة إلى أن ظلم الحاكم الجائر ، عقاب يفرضه الله على أهل الآثام والمعاصي من عباده . . ! فالحاكم الظالم عدل الله في أرضه<sup>(٢)</sup> ، وأدب الفقراء معه أدب مع الله<sup>(٣)</sup> ؛ فإن اعتزل وظيفته ، زالت ضرورة احترامه ، لأن التعظيم للرتب لا للذوات<sup>(٤)</sup> . . . ! إلى آخر ما نراه منشوراً في كتبه ؛ ولم يكن غريباً بعد هذا كله ، أن يقف الشعراى بعض كتبه ، على تأييد هذه الدعوات .

### حقيقة دعوته في مناهضة الظلم :

ولكننا نلاحظ أن هذه الدعوة ، قد صاحبها دعوة أخرى مشت في كتبه على استحياء ، ولعلها أدل على رأيه الصحيح من دعوته التي أسلفناها ، وعرفنا أن الخوف كان من أكبر بواعثها ، إذ صرح - في بعض نصوص له - بأنه يستثنى من ظلمة الحكام ، من خالفوا أحكام الشريعة<sup>(٥)</sup> ؛ وقرر موالاته

(١) لطائف المتن ج ١ ص ٩٣ . (٢) درر الفواس ٢٩ والجواهر والدرر ١٢٤ .

(٣) البحر المورود ص ٢٠٥ . (٤) المصدر السالف ١٥٥ - ٦ .

(٥) بهجة النوس ٥٦ .

نصحهم ، وعدم تمكينهم من ظلم الرعية والجور على الناس<sup>(١)</sup> ، وعدم الركون إلى تملقهم ، لأن في جهنم واديا يقال له « ههب » أعده الله للظلمة والفقراء للداهنيين الذين يتملقون الأمراء ، ويصادقونهم لغير مصلحة أو نصيحة<sup>(٢)</sup> .

وواضح من هذا أنه يخالف الدعوة للرضا بمسلك الحكام الظلمة سراً وجهرأ ، إلا أن هذه الدعوة - فيما يكبر في ظننا - صدى الخوف من النفي والاضطهاد وما إليه بسبيل ؛ وقد كان الشعرا في عميق الشعور بغدر هؤلاء الظلمة به ، حتى كان يحذر شيوخ الطريق بالتزام الحيطة في صحبتهم ، وعدم الغفلة عما يحتمل أن يحاك لهم في الظلام ، مع ما لهؤلاء الخونة من دسائس ، ولكن الشعرا في كان يحرص على مداراة خصومه ، وتماق أهل السلطان منهم ، فليس ما يمنعه بعد هذا من التصريح مع الأمراء بغير ما يعتقد . . . ! ومن دلالات هذا الذي ترجمه ، أن من مؤلفاته التي ذكرها « بروكلمان » ، كتابا يحمل هذا الاسم « إرشاد المغفلين من الفقهاء والفقراء ، إلى ( شروط ) صحبة الأمراء » والراجح أن في هذه « الشروط » ما يؤيد ما قلناه ، بل إن لدينا على صدق ما نقول دليلا أقوى ، فهو يروي في « البحر المورود » عن شيخه المتبولي ، أنه يؤثر في حال الإنكار على الأمراء أضعف الإيمان ،

بحيث لا يتجاوز الضيق بالظلم جدران القلب إلى اليد أو اللسان<sup>(١)</sup> . . . . !!  
ولكنه يروى عنه في طبقاته الكبرى ، أنه قال إن الفقير الذي لا يقتل من  
الظلمة ، عدد ما في رأسه من شعر ، لا ينتظم في سمط الصادقين من  
الفقراء<sup>(٢)</sup> . . . . !! وهذه جملة تحمل من الدلالات ما لا نجد معه ضرورة  
للتعقيب .

على أن دعوة الشعراني لاحترام الحكام والإذعان بظلمهم ، أشيع في  
كتبه وأصرح من دعوته الثانية النحيلة ، ولهذا جاز الظن بأن نظرتَه إلى  
صلة الناس بحكامهم ، قد هونت من خطب احتمالهم للظلم ، ومهدت لأذغانهم  
للاستعباد ، وليس هذا بالهين اليسير . . . وأكبر الظن عندنا ، أن هذه النزعة  
الخبثية ، لم تفارق المصريين إلا أواخر العصر العثماني ، حين بدأ ينهض في مصر  
« رأى عام » تولى قيادته رجال الأزهر الشريف ، يملأهم الاعتزاز بنفوسهم  
والاستخفاف بالظلمة من حكامهم<sup>(٣)</sup> .

---

(١) البحر المورود ٢٧١ . (٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٧٧ .  
(٣) في الجبرتي ما يؤيد ذلك ، وقد أحسن تصوير هذه الروح الطيبة ، الأستاذ محمد فريد  
أبو حديد في كتابه المتع « سيرة السيد عمر مكرم » .

## الفصل الثالث

### آراؤه في الحياة العملية

#### البطالة عند متصوفة عصره:

قد تباعد الحياة الروحية بين أهلها وأساليب النضال المادي ، ووجوه النشاط في زحمة الحياة ، ومن أجل هذا كان شيوع التصوف ، استخفافاً بمطالب الدنيا ، وانذاراً بركود الحياة العملية عند أهلها ، فإن فسد هذا التصوف ودخله الدجل ، كان أدعى إلى البطالة وإيثار الدعة ، وهذا ما كان من أمر الكثيرين من الفقراء في عصر الشعرائي ، وإن كان مسلكهم قد ارتفع عن مظان الريب عند الناس - مع استثناء الأقلية المستنيرة منهم ، وقد كان هؤلاء الفقراء يمتدرون عن إيثار البطالة على العمل ، بانقطاعهم لله وتفرغهم لعبادته ، بل كان الفقير إذا نزع إلى احتراف عمل يفتت من ورائه امتدت إلى زهده الظنون ، ونالت من سمعته الألسن<sup>(١)</sup> !...

## مقاومته للبطالة :

ولكن الشعراني على كثرة ما كتب في الزهد والحرمان ، قد ناهض الدعوة للبطالة ، ووضع للزهد مذهباً بمنعروض لبيانه بعد قليل ، ودعا إلى الجمع بين العبادة والعمل ، وساق كثرة من الشواهد الدالة على حرص كبار السالكين من أهل التصوف ، على تجنب العيش على صدقات المحسنين ، وهو صريح في إشارته العمل على حياة التسول ، وإن أباح هذه الآفة لمن اشتدت به الفاقة ، وأعوذ به احتمال الإنفاق على من يعول ؛ بل أذعن الشعراني لتمرده على البطالة ، حتى آثر حياة البدن على حياة الروح ، لأن هذه قد تفرغت عن حياة الجسم ، وهي تتأثر بما يعتريه من وجوه العسر واليسر ، حتى ليفضى الضحك إلى تشتت الفكر وبلبلة الخاطر ، ومن هنا كان يقول الشافعي : لا تشاور من ليس في بيته دقيق<sup>(١)</sup> . . . وفي ضوء هذه النظرة ، أوجب الشعراني طلب التداوي من كل مرض يعتري الجسم ، وإن نصح بتجنب الالتجاء إلى غير المسلمين من الأطباء<sup>(٢)</sup> . . . ! وكانت هذه الدعوة لا تتمشى مع حرص الصوفية ، على أخذ الجسم المريض بالعلاج المتكاف ، إذعانا لقضاء الله ، وصبراً على بلائه<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السابق ٣٢٥ . (٢) البحر المورود ص ١٨١ .

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٦٥ - ٦ وفي البحر المورود ٢٨١ يضع قواعد طبية لصالح الأبدان في كل زمان .



وقد صرح الشعراي بأن ترك الكسب بالعمل المشروع ، والتماس الرزق عند المحسنين ، جهل بمقام التوكل الصحيح<sup>(١)</sup> ، لأن هذا المسبك يعرض الفقير للرياء ، ويفقده حسنات أعماله ، إذ يتقاسمها المحسنون الذين هيأوا له بإحسانهم سبيل أدائها ، وإن كان هذا لا يتنافى مع إباحة الرزق الذي يهبط على الفقير من حيث لا يحتسب<sup>(٢)</sup> .

### مذهبه في الزهد :

لا ينبغي أن ينساق الفقير إلى الزهد بباعث من شعوره باللذة من نعيم الترك وخلو اليد وراحة القلب ، وإلا كان هذا انصرافا عن لذة إلى لذة قد تربي عليها ، وما هكذا يكون زهد العارفين بالله ، وإنما يأخذهم الشغف بحب الله ، ويستبدّ بقلوبهم هواه ، فيمسكون الدنيا بخدافيرها ، لا يتركون منها إلا مامستته الريبة ، ثم يحسنون التصرف فيما يملكون ، فلا يكون زهدهم عن خلو وفراغ وإملاق .

ومن الجهالة ذم الدنيا إطلاقا ، لأن مثل هذا النفور ، لا يكون إلا أثرا لتعلق القلب بمحبتها دون الله ، وحجاب صاحبها بها عن الآخرة ، وآفة الدنيا :

(١) المهود المحمدية ٣٠٦ . البحر المورود ١٤٤ . والمهود المحمدية ٣٠٦ .

(٢) المناقب الكبرى ١٠٠ . والمهود المحمدية ٢٤٦ .

النساء والمال والجاه والولد ، ولكن الكامل لا يهرب من هذه الآفات ، بل يستوعب جيبها جميعا ، لأن دنيا العارف في يده وليست في قلبه ، ومن هنا كان النكاح عبادة .. ! بل يحتم شهود الله أثناء النكاح <sup>(١)</sup> .. ! وقد عرفنا عند الحديث على الحياة العلمية ، أن النكاح في رأيه ، أعظم النوافل التي تدنى الإنسان من ربه ، وتهيئه لتلقى العلم اللدني .. ! فان كانت الزوجة على فتنة وجمال ، وجب تجاوز اللذة بالاستمتاع بها ، إلى رفع الهمة إلى التمتع بجمال من هي من آثار صنعه تعالى ، ولهذا جاز أن تُمهر الزوج غالبا ، ودفع ثمن الجوارى الجميلات باهظا ، لأن شهود سواد العيون وطول الأهداب وحمرة الشفاه وانحدود ونحوه ، يفضى إلى الشعور بأكبار الله وشكره على هذه النعم <sup>(٢)</sup> .. ! وقد بنى الشعراى بأربع زوجات ، وكان مع هذا يقتنى الجاريات .. ! وقد اهتم بالحديث عن النكاح ، فكتب عنه في « الميزان » ثلاثة فصول ، يعرض فيها أمره ، وشروطه وآدابه ، وما يحرم منه وما يحل ... ويوفق في كل ذلك بين مذاهب الأئمة <sup>(٣)</sup> ، ولم يفعل عن الحديث عنه في كتبه الأخرى .. ! ومثل هذا يقال في سائر الآفات الأربع .

والزهد عند الكُمَّل لا يكون عن خلو اليد من متاع الدنيا ، وإنما يكون بخلو القلب مع امتلاء اليد ، وكال المقام في زهد القلب ، لا يتحقق بغير الزهد

(١) المناقب الكبرى ١٠٠ والعهود المحمدية ٢٤٦ . (٢) البحر المورود ٢٨١-٢٠٢ .

(٣) انظر الميزان ج ٢ ص ١٠٣ - ١١٠

فما يملك الإنسان التصرف فيه من غير مانع ، أما الزهد مع خلو اليد ، فربما كان مصدره الإملاق ، ولهذا قيل إن من شرط الداعى إلى الله ، ألا يكون كامل التجرد عن دنياه ، وهذا بالإضافة إلى أن مثل هذا الإملاق يحوج صاحبه إلى سؤال الناس بالحال أو بالقال ، وبهذا يهون في نفوسهم أمره ، ويضعف عندهم تأثير تعاليمه ، وعلى الضد من ذلك ، إن كان صاحب مال يفيض عن حياته الخسنة ، فينفق منه على مريديه وغيرهم من المحتاجين ، حتى لقد يعنى المال عن الحال في إغراء المريدين واستهواء المجاورين<sup>(١)</sup> .. !  
وحقيقة الزهد زوال محبة المال والطعام والنام ونحوه ، من قلب الفقير لامن يده ، والسالك يتبع أستاذه حتى يحرره من الكلف بالدنيا ، ثم يعود به إلى طلبها ، ويأمره أن يمسك ما كان ينهاه عنه ، مع التزام حسن النية ، واستعمال كل شىء فيما خلق له ، على الوجه المشروع من ذلك ، لأن حقيقة الزهد ، لا تقوم إلا في زوال تعلق القلب ، بما لم يُقسم له<sup>(٢)</sup> .. !

والشعرانى مع هذا يعتقد على طريقة أقرانه ، أن الإخلاص في عبادة الله ، والصدق في السلوك إلى حضرته ، مجلبة للرزق الواسع والمال الطائل ، على ما أشرنا من قبل ، وهو يسوق الشواهد على صحة اعتقاده ، بالزوايا التي عاشت على ما يفتح الله ، حتى إذا حبست عليها الأوقاف وأجريت الأرزاق ، اطمأن

أهلها وركنوا إليها ، فانهى فساد إخلاصهم بقسلة الرزق وضيق الحال .. ! لأن  
وإن كان الأدنى إلى الصواب فيما يلوح ، أن يقال إن المحسنين قد كفوا أيديهم وإن  
عن العطاء المستور ، حين تسمعوا بنياً هذه الأوقاف ، فتأثرت بهذا حالة العيش  
في تلك الزوايا .. !

ولكن الشعراني رغم حرصه على الدعوة للاحتراف والحض على التكسب  
الحلال ، وزهد الفقير في غير ما يملك ، كان - رغم هذا - لا يحترم الملكية  
ولا يرضى بالادخار . فهو يغتبط إذا افتقد شيئاً ، بانما ما بلغت قيمته ، هواناً  
بالدنيا ومتاعها ، وتنشيطاً لهم إخوانه في الطريق - إلا إذا كان الشيء المفقود ،  
من الحلال بحيث ينعدم نظيره في عصره ، أو ملكاً لغيره من الناس ، فإن لم  
يكن كذلك ، أبرأ ذمة السارق أو المغتصب ، حتى لا يطالبه به يوم الحشر .  
والله وحده هو مالك الدنيا وما فيها ، والرزق بيده يمنحه من شاء ، ويقبضه  
عمن أراد من عباده ، فلا ينبغي أن يضيق الإنسان إذا افتقد بعض ما يملك ،  
لأن جميع هذا مصيره إلى الفقراء والمعوزين ، وما يسرق السارق ولا ينهب  
المغتصب ، إلا عن حاجة وعوز<sup>(١)</sup> .. !

وإذا جاز هذا كان طلب الربح مع تكلف الجهد من أجله غير مباح ،  
متى وجد المرء ما يسد رمقه ويستر عورته ، والسعى في طلب المال ، قد يُفَوَّتْ  
على صاحبه النهوض بشعائر الدين ، ومتى صح هذا كان الادخار مردولاً ،

(١) في لطائف المتن ج ١ ص ١٤٨ تفصيل ذلك .

لأن الدعوة إلى التكسب ، مرهونة بإنفاق الكسب في وجوهه المشروعة ،  
وإن أبيع الادخار عن أمر إلهي أو كشف يبيده ضرورياً لمحتاج ، على يد  
هذا المدخر ، ومن هنا فصل الشعرائي في شروطه وقواعده <sup>(١)</sup> ...

ولكن الشعرائي مع مقاومته للبطالة ومهاجمته للنسول ، يبيح الشحاذة  
لنوع من الفقراء ، يطوفون بالبيوت والناس يسألون الإحسان ، مع قدرتهم  
على التكسب ، مبرراً مسلكهم بأمرين : أولهما جمع الصدقات رغبة في توزيعها  
على المعوزين ممن كبرت بهم السن ، أو أقدمهم المرض عن اكتساب القوت ؛  
وثانيهما رغبتهم في أن يحملوا عن المحسنين آثامهم ، اقتداءً بالقطب والأوتاد  
ومن إليهم من أهل الصلاح والورع <sup>(٢)</sup> ، وقد جاء في الحديث أن هدية الله  
للمؤمن ، وقوف السائل ببابه ...

على أن الدعوة للتكسب ، تمشياً مع ضرورات الحياة ، لا تبرر الخط من  
شأن الاعتكاف في المساجد ، والانتقطاع في الزوايا ، فما أبيع الجهاد في طلب  
الرزق ، إلا لأنه يجذب القلب ، ويحرمه الاستغراق في العبادة ، فإذا أمن  
العابد شر هذا التلفت نحو الدنيا ، كان الاعتكاف أحق وأولى .. ! ومن هنا

(١) الجواهر والدرر الوسطى ١٣٩ ودرر الفواس ٥٨ والبحر المورود ١٢٧ - ١٢٩ .

(٢) درر الفواس ١٤ - ١٥ .

جاءت مكانة الخلوّة عند أرباب الطريق<sup>(١)</sup> ، والواقع أن إشار السعى على التوكل أو العكس ، مردّه إلى الله ، فما سبق في علم الله أنه سيصيب الإنسان ، واقع لا محالة ، والرزق في طلب صاحبه دائر ، والمرزوق في طلب رزقه حائر ، ومن لم يوهب الكشف ، مخير بين الإقدام على السعى أو الإحجام عنه ، وذلك مذهب المحققين من الصوفية ، أما المتكلمون فيا يروى الشعراني ، فإن فريقاً منهم يرجح التوكل إطلاقاً ، وفريقاً يرجح الاكتساب إطلاقاً<sup>(٢)</sup>...

### مناقشة مذهبه :

على أننا نلاحظ في آراء الشعراني تناقضاً ملحوظاً ، فهو يفصل في بيان ما يقتضيه الزهد من خلو القلب مع امتلاء اليد ، ثم يحرم على التاجر السفر متى وجد ما يسد رمقه وورق من يعول . . ! ثم هو يترك الخيار - لغير أهل الكشف بصد السعى أو التوكل ، احتراماً لما سبق منهما في علم الله ، وهذا يفضى إلى إشار البطالة لأن السعى أشق وأفضل على النفس ، ومع هذا يهاجم البطالة وأهلها في غير رفق ، ويدعو إلى العمل في صراحة ملحوظة . . ! ثم هو يفرى الفقراء بالملكية ، لأن الزهد لا يستقيم مع خلو اليد ، ولكنه يعمل على تحويرها وإغائها ، ويحرم ادخار الذهب والفضة صراحة لا تليحها ، مع

(١) العهود المحمدية ٨٦ . (٢) اليواقيت ج ١ ص ١٣٩ ودرر الغواص ١٨ .

جعل السعى في المرتبة الثانية بعد الاعتكاف في المساجد والزوايا ، مع أنه قرر بأن حياة الأبدان مقدمة على حياة الأرواح ، وهذا كله رغم أنه في بعض النصوص ، يترك الخيار للفقير بين إثار السعى أو التوكل . . . ! وهو يقرر أن شيوخه يعيشون على ما يفتح الله ، وأن العيش على رزق معلوم مجلبة للمتاعب ، ولكنه يصرح بأن الكسب أفضل من العيش على ما يفتح الله ، وهذا تناقض ما لم يكن قصده التكسب عند المريدين ومن لم يرتفعوا إلى مرتبة السكمل من العارفين ... الخ

وإن قيل كيف يُعتبر زاهداً في شهوات الجسم ، مع حرصه على حظه من الزوجات الأربع والجاريات ، كان في الأمكان أن يقال إنه يرى أن النكاح عبادة ، وأن الزهد لا يكون مع خلو اليد أو القلب .. !!

### مدى ملاءمة تعاليمه لروح عصره :

فإذا أغفلنا أمر هذا التناقض الملحوظ - في كل آثار الشعرائي - وبخشنا عن مدى ملاءمة تعاليمه لروح عصره ، قلنا إنصافاً له ، إن الحياة المصرية في عصره كانت بسيطة غير معقدة ، لا تتطلب كل هذا النضال الذي تستلزمه حياتنا الراهنة ، لأن المدنية التي أدركت حياتنا ، قد عقدت بساطتها ، وحوّلت أنظارنا إلى تقديس المادة وعبادتها ، وأصبحت هذه الحياة المادية المعقدة ، لا

تتمشى مع الزهد في كثرة المال ، والتواني في طلب الرزق والنفور من الادخار  
والتفرغ لعبادة الله .. الخ

على أن إسراف الشعراني في الانصراف عن متاع الدنيا ، ودعوته  
للاقتطاع للتهجد والذكر يفضى إلى الركود ويعوق التطور السريع ، في عصر  
تمضى قافلته قدما من غير تمهل ولا إبطاء .



## البَصَلُ الرَّابِعُ

آرَاؤُهُ فِي الْحَيَاةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ

### أثر الطريق في الفضائل السلبية :

في التصوف رياضة روحية شاقّة ، تقوم على مجاهدة النفس والترقى في المقامات ، للاستغراق في حب الله ، مع تحامى الاستجابة للرغبات والشهوات ، واتقاء مواطن الرّيب ومظان السوء ، والتهيؤ للأذواق والمسكشفات وما إليها بسبيل ، ومن تهيأت له هذه المرتبة ، فقد جنّب الناس أذاه ، وقدم لهم ما استطاع من وجوه البر والخير . وقد كان الشعراى صوفيا واسع الإلمام بالدين وعلومه ، فخلف تراثاً ضخماً ضمنه بيان مذهبه في أخلاق السالكين ، وأغرى به كثرة المريدين الذين يسلكون على يديه ، وبتعاليمه في نفوس الألوّف من قرائه . ويصرح الشعراى بأن غاية الطريق التقرب من حضرة الله الخالصة ، ومجالسته فيها من غير حجاب ، وأما الثواب فشكّه حكم علف الدواب<sup>(١)</sup> ،

لأن الفقير يجب الله لذاته ، وليس لإحسانه ، ومن عكس القضية كان عبداً للإحسان لا عبداً لله<sup>(١)</sup> والوصول إلى هذا الحب ، يتطلب رياضة روحية شاقة تقتضى عدم الركون إلى أرض شهوة مباحة ، فضلاً عن شهوة محظورة ، والحرص على تطهير الجسم ، بالجوع والصيام والحرمات والزهد ، ومحاسبة النفس على ما تبدي من نزعات أو غفلات ...

على أن الشعراني مع حرصه على جعل الطريق أداة لحب الله ، يجارى أهل الفقه في اتخاذ الدنيا جسراً إلى الآخرة ، وتركيز الاهتمام بالجنة والنار ، حتى تمحى الرغبات في المطالب الدنيوية ، ومن شأن هذه النظرة ، أن تفضى بأصحابها - سواء أ كانوا من أحباب الله أم من دعاة العمل للآخرة - إلى الإعجاب بالفضائل السلمية ، كالزهد في طلب الدنيا والعفة والقناعة والتواكل ، والصبر على الأذى واحتمال المسكاره ، والعفو عن أساء أو أذنب ، وغير هذا مما حفلت به كتب الشعراني ، وقد أشرنا من قبل إلى حملاته العنيفة على من ادعوا التصوف ، ممن مرقوا من خصائصه التي لا يستقيم بدونها ، ومن أجل هذا كثر حديثه عن الزهد والتوكل والتعفف والرضا بالظلم ، لاعتبار صاحبه عهول الله في أرضه ، وقبول الإساءات لأنها عقاب ينزله الله بنا ، جزاء على ما قدمنا من وجوه الإثم والمعصية . ويفاخر الشعراني بقدرته على احتمال الأذى

(١) الجواهر والدرر ص ١٠ .

والعدوان من غير أن ينزع إلى الشكوى ، أو يستشعر من أجله ضيقا . . . !  
فمن دلالات هذا أن رجلا قبض على عنقه ، وانتهال عليه صنفا ولصا  
وركلا ، بحجة أنه أفسد امرأته ، ثم تبينه بعد ، فإذا هو غير من أراد  
الانتقام منه ، فتركه وانصرف . . . ! والشعراني لا يشعر قط بأن إساءة  
وجهت إليه . . . ! وألزمه جماعة السلطان بإحضار الأمير محي الدين ابن  
أبي أصبع - وكان يتردد عليه قبل اختفائه - وأغلظوا عليه حتى هموا بقتله ،  
ولكنه لبث على هدوئه والابتسامة تعلو ثغره ، عن شعور طبيعي لا أثر  
للتكلف فيه <sup>(١)</sup> . . . ! ويمضى الشعراني إلى مطالبة الفقراء بالعفو عن يشخهم  
ضربا ويوسعهم سبا ، وينهش أعراضهم أو يقتل أعضائهم - من أب أو أخ  
أو ولد <sup>(٢)</sup> . . . !

ثم يقول في نعمة تذكرنا بساحة « سقراط » قديما ، « وغاندى » ومن  
إليه حديثاً ، إنه يبغض الشر ويعطف على الأشرار ، لأنهم إخوة في  
الإنسانية قد ضلوا سبيلا ، ومن الخطأ عدم التفرقة بين ذات الشرير وصفاته ،  
وتوبة الشرير تجعله حبيبا إلى النفوس صفة وذاتا <sup>(٣)</sup> ، ومن أقدم على إيذاء غيره  
فقد عصى ربه ، ونسى أن عين الله ساهرة لا تغفل ، وأن المذنب في غفلة

(١) المناقب ٨٨ . (٢) العبود المحمدية ١٨٠ .

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ١١ و ٦٣ والمناقب ٨٩ .

عن عبوديته لخلاقه ، وهذا أحق بالرحمة والرأء منه بالعقاب والانتقام<sup>(١)</sup> .  
ومن أجل هذا كان الشعراني ، لا يؤاخذ عدوا على عداوته ، لأنها إن  
كانت عن حق ، أضحت المؤاخذة حماقة ، وإن كانت عن غير حق ، اعتبر  
عدوه مبتلى في دينه ، ونزع إلى طلب الرحمة له ، لا الغضب عليه ، فإن  
العاقل من يعامل الناس بما يجلب له أجراً ، لا بما يجزر عليه وزرأ<sup>(٢)</sup> .  
ولكن الدعوة إلى الزهد في الدنيا واحتمال الأذى والصبر على الهوان ،  
لا تتمشى مع التحريض على العمدوان ، بل يؤازرها النزوع إلى الوثام ،  
وتنقية النفس من أدران التباغض ، وتحري التآف والتوادد وقد حرص  
الشعراني في الكثير من كتبه ، على التوفيق بين علماء الرسوم وعلماء  
الحقيقة ، وتحريم التباغض والتحاسد ، وتوخى زيارة المرضى ، والسؤال عن  
تغيب من الإخوان ، والمبادرة إلى خدمة المحتاج ، ومواساة الحزين ، وتوقير  
الصغير للكبير . ورد الإساءة بالحسنى . . ونحو هذا من الفضائل .

### موقفه من الفضائل الإيجابية :

والشعراني - كغيره من الصوفية - لا يميل إلى الخوض على الفضائل الإيجابية  
التي تستلزم جهوداً في نضال البقاء ، وقد اعتبر الكثير منها خروجاً على أوضاع  
الطريق وتقاليده ، لأن الحرص على الدنيا مرد هذه الفضائل من إقدام

(١) لطائف المنن ج ٢ ص ١٨٢ (٢) المناقب ٩٤ .

وشجاعة في مقاومة الظلم وكف الأذى ، والسعى في طلب الحق المسلوب ،  
والظفر من الدنيا بأوفر نصيب. والتزود بمثل هذه الفضائل ، لا يستلزمه السلوك  
إلى حضرة الله ، ولا السعى إلى جناته .

فالأخلاق التي روج لها بين مريديه ، هي أخلاق العبيد فيما يسميها  
« نيتشة » ومن إليه من دعاة القوة ، وهي تلائم حياة اللين والدعة ، ولا  
تتفق مع الحركة السريعة والوثبة العاجلة ، وإن كان الإنصاف يقتضينا أن  
نقول إن الحياة في عصره ، كانت لا تتطلب من حدة الكفاح ما تستلزمه في  
عصرنا الحاضر ، وقد كانت الحكومة في عصره تكتفي بجمع الضرائب  
والدفاع عن البلاد ، وصد الغارات والفصل في شكاوى الناس ، ولا تجفل  
بترقية الشعب ، بالعمل على إقامة المستشفيات والمدارس والمصانع ونحوها ،  
ومن هنا تمتضح قيمة الدعوة التي بشر بها الشعراني .

### موقفه من الصوفية الخارجيين على الشرع :

ويبدو الشعراني - في أكثر ما يكتب - حريصاً على التزام ظاهر  
الكتاب والسنة قولاً وعملاً ، ولكن نزعاته الصوفية كانت كثيراً ما تدفعه  
إلى تأييد ما لا يتفق مع ظاهر هذه النصوص ، ومن هذا موقفه من طائفة  
عرفت بين صوفية الإسلام منذ القدم ، ادعى أصحابها بأن من بلغ الغاية

التصوى من الولاية ، سقطت عنه الشرائع كلها من صلاة وصيام وزكاة . . .  
وحلت له كافة المحرمات من زنا وخمر وميسر<sup>(١)</sup> . . . ! ؛ وقد وجد لهذا النزوع أتباع  
في عصر الشعراني في مصر ، زعموا أنهم التزموا العمل بقواعد الشريعة  
حتى « وصلوا » إلى الحضرة الإلهية ، فأغناهم هذا عن التزام هذه القواعد ،  
مدعين سقوط التكليف الدينية عنهم ، وإباحة المحرمات لهم ، وقد أنكر  
المنأوى + ١٠٣١ تلميذ الشعراني هذا الاتجاه ، وخطأ من يقول إن الولى إذا  
بلغ الغاية في المحبة وصفاء القلب وكال الإخلاص ، سقط عنه الأمر والنهى ،  
ولم يدخل النار بارتكاب الكبائر . . . ! وصرح بأن هذا باطل بإجماع  
المسلمين<sup>(٢)</sup> .

على أن الشعراني قد أذعن لهذا الاتجاه وإن قصره على فئة من الأولياء ،  
إذ بين الأولياء من أوتى عقل التكليف ، فكان بهذا قدوة الناس في  
التزام ظاهر الكتاب والسنة ، إذ أن الله لا يوجب شيئاً أو يحرمه على السنة  
رسله ، ثم يبيحه لأحد من أوليائه ، إذ لا ينسخ الشريعة إلا من جاء بها ،  
وقد كان « محمد صلى الله عليه وسلم » آخر الرسل ، فليس لشرعه ناسخ أبداً ،  
ومن هنا ذهب ابن عربى ، إلى أن الولى لا يجوز له قط أن يبادر إلى فعل  
معصية ، قد اطلع من طريق كشفه على تقديرها عليه<sup>(٣)</sup> ؛ ولما سئل

(١) ابن حزم : الملل والنحل ج ٤ ص ٢٢٦ . (٢) طبقات المناوى الكبرى  
ص + ٧ . (٣) اليواقيت ج ١ ص ١٣٥ .

أبو القاسم الجنيد ، عن هؤلاء الواصلين الذين يتخطون أوامر الدين ونواهيه ، قال إنهم صدقوا في الوصول ، ولكن إلى سقر<sup>(١)</sup> .

ولكنه يرى أن في هذا الموقف ، جوراً على طائفة من كبار شيوخه ، ممن أوتوا عقل التكليف ، ومع هذا أهملوا القيام بتكاليف الدين ، وتمردوا على قواعده تحت بصر الجمهور وسمعه ، فهض الشعرائي للدفاع عنهم ، زاعماً أنهم يقومون بفرائض الدين ، في خفاء عن الأنظار . . ! فشيوخه الذين كانوا لا يقيمون الصلاة أمام الناس - من الخواص والمتبولى والدشطوطى - كانوا يؤدونها في بلاد الله النائبة المقدسة ، إذ آتاهم الله القدرة على طي الأرض في ملح البصر<sup>(٢)</sup> . . ! أما الذين يرتكبون المنكر والبغى وما إليه ، فإنهم لا يقدمون على هذا العبث في واقع الأمر ، وإن أوهما الناس به ، حتى ينصرف هؤلاء عنهم ، ويكفوا عن الحديث عن تقواهم ، ويزيدون في ثوابهم بالإسكار عليهم ، ويمكنونهم بهذا كله من التفرغ للذكر والتهجد<sup>(٣)</sup> . . ؟

هذا موقفه من أمر الخارجين على الدين من أولياء الله ، الذين أوتوا عقل التكليف ، أما الذين حرمهم الله هبة العقل ، وهم أرباب الأحوال من

(١) اليواقيت ج ١ ص ١٣٦ .

(٢) في درر القواس ٥٥ - ٥٦ واليواقيت ج ١ ص ١٣٥ وغيرها أمثلة كثيرة توضح رأيه . (٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٩ وفي غيرها أمثلة كثيرة يؤيد بها رأيه .

بها ليل ومجازيب ومجانين ، فقد ارتفع عنهم التكليف ، لأن ذهاب عقولهم كان عن أمر طراً عليهم من قبل الله ، وكانوا أضعف من أن يحتملوه ، فنتساووا بهذا مع الحيوان الذي لا يحاسب عما يفعل ، مع قدرته على الكشف الذي يزيل به الحجب<sup>(١)</sup> .

وهذا إتجاه عرف في الإسلام من قبل ، وبشر به المتأزون من مفكرى أهله ، وحسبنا من هؤلاء « ابن خلدون » فقد قرر في فصل عقده عن حقيقة النبوة والكهانة ونحوها ، أن هؤلاء المعتوهين ، قد سحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين ، ولكن التكاليف الدينية قد سقطت عنهم . . . ! فأنكر الفقهاء ولايتهم ، ظننا بأن الولاية لا تكون بغير عبادة « وهذا غلط »<sup>(٢)</sup> . . ! بل عرف هذا الاتجاه عند غير المسلمين<sup>(٣)</sup> .

بل إن في بعض ما يرويه الشعرائى عن نفسه ، ما يثير كل حيرة ، فهو رغم دعوته العريضة التى يؤكد فيها حرصه على التزام ظاهر الكتاب والسنة ، يعترف مرة - فى غير استحياء - بأنه أفطر فى رمضان عشرة أيام ، ابتهاجاً بشفاء السلطان سليمان بن عثمان ، من ألم أصاب رجله . . . ! ويقول

---

(١) اليواقيت ج ١ ص ١٣٦ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٦ - وانظر كتابنا « التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام » .

(٣) أبان عن هذا فى العالم القديم Cicero فى كتابه « العلم بالغيب » Divination وقد نقلناه إلى العربية ، وألحقنا ترجمته مع التعليق عليها برسالتنا عن الأحلام فى الدكتوراه ، وستنشره قريباً .



إنه أفطر في فرص أخرى ، منها ما كان بشأن الوزير على باشا حين كان نائباً  
في مصر . . . ؟! وأن هذا كان شأن شيوخه من « الخواص » ومن  
إليه <sup>(١)</sup> .! ومامن شك في أن إفطار رمضان لمثل هذا السبب التافه ، لا يبيحه  
مصدر من مصادر الشريعة الإسلامية ، ولكن مثل هذا المروق - فيما يلوح  
لنا - مرده إلى مبالغة الشعرائي في إظهار الولاء للحكام ، فقد كان - على  
ما عرفنا - يخشى بأسهم ، ويخطب ودهم ، فإن صح هذا الاحتمال في نفى  
ما يرويه عن نفسه من إفطار رمضان ، فما أضل طريقته في إعلان ولائه .!  
ولكن ، حسبه أن يصفه المستشرق ماكدونالد بأنه رجل أخلاق ،  
تهزه أنفة خلقية عالية <sup>(٢)</sup> .

(١) بهجة النفوس ص ٣٣ .

(2) D. B. Macdonald, The Religious Attitude and Life in Islam  
P. 148

## كَلِمَاتُ آخِرَةٍ

مكانته :

أبنا فيما أسلفنا ، عن بعض ما تهبأ للشعراني من وجوه العلم وأسباب التصوف ، ووازننا بين مثله العليا كما جرت في بطون مؤلفاته ، ومسلكها إزاءها كما بدا في أساليب حياته ، وعرفنا الكثير من خصائصه التي رفعت إلى مرتبة العطاء ، وإن لم تنتزعه من صفوف البشر ، وتنبض عنه مالا يفارق الناس من وجوه المآخذ .

وقد سمعت إليه الزعامة في الفقه والتصوف حتى انفرد بها أواخر عصره ، وعند هذين كانت تلتقي وجوه العلم في عصره ، وبهما استبد بهوى الجماهير ، وانتزع إعجاب الفقهاء ، واستل افتتان الأمراء ومن إليهم من الحكام حتى أضحت زاويته مركز الحكم السيامي في مصر .

فلما استوفى الشعراني في الحياة أنفاسه ، أضفت رهبة الموت على اسمه سحرا وقدسية وجلالا ، وأضادت الجوانب التي كدرت الخصومة صفاءها في

حياته ، وزادت من إذاعة آرائه في العالم الإسلامي طولا وعرضا ، فإذا عرفت الطباعة كان حظ مؤلفاته منها موفورا ، وما نشر منها تكررت طبعاته مرات ومرات . ولا تزال دور الكتب في العالمين الأوربي والإسلامي ، تحتفظ بالكثير من فيض كتبه مطبوعا ومخطوطا - و « بروكلان » أعدل شاهد على ما نقول ، وقد ساعد على هذا الافتتان ، بساطة أسلوبه ، وتجرده من الحسنيات البديعية والتنميقات اللفظية ، وإرساله مطلقا من غير تكلف .

### الشعراني في نظر المستشرقين :

يتحدث الأستاذ « نيكلسون » عن العالم الإسلامي منذ فتح المغول ، وركود الثقافة والآداب عند أهله ، واقتصار علمائه على الجمع والتقليد ، ثم يقول إننا إذا استثنينا شخصيتين شاذتين ، هما ابن خلدون المؤرخ ، والشعراني الصوفي ، لم نجد في آثار العصر بوادر انطلاق أو انتاج خصب مشعر ، أو أي أثر لتفكير « أصيل وضيء »<sup>(١)</sup> . ويقول عنه في موضع آخر من الكتاب نفسه : كان الشعراني - مع كل وجوه القصور فيه ، مفكرا مبدعا أصيلا ، أثر تأثيرا واسع للدى ، يشهد به إلى يومنا الحاضر ، إلحاح القراء إلحاحا متصلا في طلب مؤلفاته<sup>(٢)</sup> .

(1) Nickolson P. 242-3 (2) Ibid P. 464

ويقول الأستاذ « ماكدونالد » Macdonald في كتاب له : إن الشعراني كان رجلاً درّاً كما نفاذاً مخلصاً واسع العقل<sup>(١)</sup> . ويقول عنه في كتاب آخر له : إنه كان يجمع بين أعظم المميزات تضاداً ، وأنه كان مشرعاً ذا « أصالة » ونفاذ ، كان عقله من العقول النادرة الخلافة في الفقه بعد القرون الثلاثة الأولى في الإسلام<sup>(٢)</sup> .

ويقول الأستاذ « فولرز » إن الشعراني كان من الناحية العملية والنظرية ، صوفياً من الطراز الأول ، وكان في الوقت نفسه كاتباً بارزاً « أصيلاً » في ميدان الفقه وأصوله ، وكان مصلحاً يكاد الإسلام لا يعرف له نظيراً<sup>(٣)</sup> .

وبمثل هذه الروح يتحدث عنه أكثر المستشرقين ؛ ويلوح لنا أن « أصالة » الشعراني في الفقه أكثر منها في التصوف ؛ يضاف إلى هذا قول « فولرز » عن مؤلفاته التي تجاوزت السبعين عدا ، إن من بينها أربعة وعشرين تعتبر - فيما يرى صاحبها نفسه - ابتكاراً محضاً أصيلاً لم يسبق إليه أبداً ، ولم يعالج فكرتها أحد قبله ؛ ويبدو لنا أن هذا صحيح إلى حد كبير ؛ بمعنى أن وجه الابتكار أنه طرق في علاج موضوعاته اتجاهات طريفة مبتكرة ، تبدو في مثل محاولته التوفيق بين المذاهب الأربعة ، أو بين أهل الكشف والعيان ، وأهل النظر والاستدلال . . إلى آخر ما عرفنا من قبل .

(1) Aspects of Islam P. 273 (2) The Religious Attitude P. 148  
Ensy. of Religion & Ethics (٣) مادة الشعراني في

وبهذا التفسير الذى رجحناه ، لا تكون « الأصالة » شاهدا على عمق التفكير ودقة النظر ، وقد صدق الأستاذ شاخت Shacht فى قوله<sup>(١)</sup> : إننا مع اعترافنا بنحسوبة إنتاجه ، نرى ضرورة الاعتدال وعدم الإصراف عند تقدير عقليته .

وهذا صحيح فيما نرى ، وحسب الشعرانى ، إيمانه العميق بالقوى الخفية ، واستخفافه بالعلاقات التى تربط بين العال ومعلولاتها ، شاهدا على حقيقة عقليته ، وما أكثر مزاعمه بصدد ما وقع له مع الأرواح والملائكة والجن والعفاريت ، والكرامات وخوارق العادات ، فإن كتبه حافلة بهذه المزاعم ، فحسبنا منها نموذجا ، يتمثل فى موقفه من الجن :

أخذت الجن تهيج ثأثرته أثناء مقامه بمدرسة « أم خوند » فكانت تظنى مصباحه وتزعج أولاده ، فكمن لها حتى إذا ظهر أحدها قبض على رجله ، فراح هذا يستغيث ولا مغيث .. ! وأخذت رجله ترق حتى أضحت كالشعرة فى يده .. ! واختفى الجن من هذه المدرسة بعد ذلك .. ! وكان فى مغطس جامع القمري جنى يؤذى الناس ، فألقى الشعرانى بنفسه فى المغطس وتعبه حتى اختفى ولم يظهر بعد ذلك<sup>(٢)</sup> .. !

وأرسل إليه أهل الإيمان من الجان عام ٩٥٥ هـ أسئلة فى قرطاس يحمله

(١) مادة الشعرانى فى Ency. of Islam (٢) المناقب الكبرى ١٣٠ و ١٣٥

أحدها في فمه ، وقد اتخذ صورة كلب أصفر اللون ، وفيها تقول : ما قول علماء  
الإنس ومشايخه في هذه الأسئلة المرقومة ؟ لأنها أشكلت علينا وسألنا عنها  
مشايخنا من الجان ، فقالوا إن هذا التحقيق لا يكون إلا عند علماء  
الإنس ، وقد أجاب عنها الشعراني بكتابه : « كشف الحجاب والران عن  
(وجه) أسئلة الجان » .. واسترعت هذه الظاهرة نظر المستشرقين من  
أمثال Flügel و Kern وماكدونالد الذي يتحدث عن اتصال الأولياء  
بالجن في الإسلام ، ويقول : إن هذه الظاهرة إذا كانت مألوفة في العالم  
الإسلامي ، فإنها لا تبدو على نحو أوضح مما تراها عليه عند الشعراني ، الذي  
كان على اتصال دائم بعالمها الخفي غير المنظور .. ويعقب الأستاذ بالأشارة  
إلى الكتاب السالف الذكر الذي كان رداً على أسئلة الجان<sup>(١)</sup> - وما أكثر  
اتصال الشعراني بالموتى من أولياء الله ، وأحاديثه ووقائعهم معهم ، ولا يكاد  
يخلو منها كتاب له<sup>(٢)</sup> .

ومن هنا كان الأصح أن يقال : إن آثاره على كثرتها ، وعظم ما لقيت  
أثناء حياته وبعد مماته من رواج ، ورغم ما امتازت به من الإحاطة والشمول  
وسعة النظر ، كانت تعوزها الأصالة وينقصها العمق ، الذي يبدو في الأنظار  
الفلسفية الدقيقة ، وإن ألح ولجَّ في إلحاحه ، بأنها فتح إلهي لم يسبق إليه

(١) المحاضرة الخامسة في كتاب The Rel. Attitude من ١٤٨ - ٩

(٢) انظر مثلاً من ١٥٧ - ٨ ج ٢ من الطبقات الكبرى في وقائعه مع السيد النادوي

أبدأ ، ويزيد في بيان عقليته ، وجوه التناقض للمحوظ في كل آثاره ، وقد عرفنا عنها الشيء الكثير .

### تأويل تناقضه :

ولسكننا رغم ما أبنا عنه من وجوه تناقضه مع نفسه ، نميل إلى حسن الظن بتفكيره ، وإن كنا على حذر من المبالغة في تقديره ، إذ أن في الإمكان - على سبيل الاحتمال - أن نقول ، إن الكثير من وجوه التناقض في آرائه قد تحراه وقصد إليه عامداً .. ! أو اضطر إليه كوسيلة لتحقيق غاية تعلقه عنده على كل غاية :

كان الشعراني حريصاً على أن يفتزع من خصومه وأقرانه الزعامة الروحية في عصره ، وكان لرغبته ما يبررها من علو كعبه في العلم والتصوف معاً ، وتفوقه على أهلها جميعاً ، ولكن بعض الفقهاء كانوا ينفسون عليه مكائده ، فلم يكن بد من أن يتراضم ويتألف قلوبهم جميعاً ، ولو كان هذا على حساب رأيه الصحيح فيهم ، ونظرته الحققة إلى علومهم ، وكانت نزعتهم الحقيقية تطل من سطور كتبه بين الحين والحين .. !

ولم تكن هذه الزعامة ميسورة بغير الدعوة لها بين حكام البلاد ، واتخاذ علاقاته الطيبة بهم ، أداة لإذاعة فضله بين الناس ، فإن دعا لاحتراهم وتوقير

الظلمة منهم ، كان هذا على حساب رأيه الصحيح في مناهضة الظلم وأهله ،  
ومن هنا سارت الدعواتان المتناقضتان في كتبه جنبا إلى جنب .. !  
والطموح إلى الزعامة ، يقتضى الأكتار من المريدين ، وهذا يستلزم  
الاحتفاظ بمن خف منهم إلى صحبته ، وإلزامهم بأداب لاتبسكهم من مفارقتهم  
ثم يتطلب تحقيق غايته ، الدعوة عند مریدی غيره من شيوخ الطريق ، إلى  
مفارقة شيوخهم ، واللحاق به للسلوك على يديه ، من غير أن يستطيع الكشف  
عن حقيقة نواياه في دعوته الأخيرة ، ومن هنا عاشت الدعواتان المتباينتان  
معاً في الكثير من كتبه .. ! وعلى هذا النحو نستطيع أن نفسر سائر وجوه  
التناقض عنده .

ويبرر احتمال هذا التأويل ، ما نلاحظه عنده من طلب الأمان والتماس  
السلامة ، في كافة أقواله وأعماله ، فهو يضع اليواقيت بجزئية ليطابق فيه بين  
عقائد أهل الكشف وعقائد أهل النظر ، وينثر هذه الدعوة في سائر كتبه ،  
ويؤلف الميزان بجزئية ليوفق بين أقوال أئمة الشريعة جميعاً ، رغبة في انتزاع  
التعصب من قلوب الناس ، وقبول آرائه من غير تبرم أو ضيق .. ! بل إن  
في صريح نصوصه ، خير بلاغ يؤيد ما نقول ، فهو يقول : « أخذ علينا  
المهود أن ندارى كل طائفة ، بقولنا نحن معكم ومن عصبتكم<sup>(١)</sup> » ؛ ويكرر



هذا في موضع آخر فيقول : « أخذ علينا العهد أن ندور مع أهل زماننا ،  
وننخدع لهم كما ينخدعون لنا ، وتلون لهم كما يتلونون لنا <sup>(١)</sup> » ؛ فلا يبعد على مثل  
هذا الرجل ، أن يخدع ويداور . . !

وربما اقتضانا الإنصاف أن نرد مسلكه إلى غرض نبيل . . ! هو رغبته  
في إصلاح الأحوال عند الناس ، واعتقاده بأنه أقدر شيوخ الفقه والطريق  
على تحقيق هذا الإصلاح ، ولكنه أساء اختيار الطريق إلى تحقيق غايته ،  
ولقد صدق الدكتور زكي مبارك حين قال لي - في لقاء عارض في وزارة المعارف - :  
إن تلون الشعراني يطعن في صدق إيمانه بآرائه ، لأن المؤمن يقف وراء  
عقيدته ويذود عنها ، وقد يستشهد في سبيلها راضياً مختاراً ، لأن الإيمان  
لا يستقيم مع النفاق ...

### مناقشة زكي مبارك في موقفه من الشعراني :

كتب الدكتور فصلاً ممتعاً ، حاول فيه أن يؤرخ من كتب الشعراني ،  
المجتمع المصري في عصره . . ! وهذه لفتة فيها ذكاء ، ولكنها لا تخلو من  
مآخذ ، إذ حسب الشعراني أن يكون من الزهدة المعرضين عن الحياة  
ومباهجها ، لتكون أحكامه على عصره مثار الشكوك والريب ، لأن الحياة  
أوسع من أن تحدها هذه النظرة المتشائمة الجانبية القاصرة ، بل إن من شأن

الزهد أن يتأدى بصاحبه إلى تمجيد الماضي على حساب الحاضر، وتصوير الجوالذي يعيش فيه في صورة قائمة معتمة ، تتغير فيها الحقائق بالمبالغة والإفراط ، وما هكذا يكون الأمر في تأريخ الظواهر ، ومن هنا وجب الحذر من أحكام الشعرائى ، وحسب الناظرين في كتبه ، ما تضمنته من معلومات ووقائع ، وإغفال حكمه عليها ضرورة يقتضيها منهج البحث العلمى .

ولكن الدكتور يعتبر الصوفية وصّافين صادقين لمجتمعاتهم ، فهو يقول في جراءة : « أهم ما تحدثنا به كتب الصوفية ، هو وصف ما كان عليه المجتمع من الأخلاق ، لأنهم لا يتحدثون إلا عن فضائل تشهاها المجتمع ، أو فريق من المجتمع ، ولا يصفون من الرذائل إلا ما تألم منه المجتمع أو بعض المجتمع ، فهم الوصافون الصادقون لما كان فى المجتمع من خير وما كان فيه من فساد<sup>(١)</sup> » ولا ندرى كيف يتأتى الصدق فى وصف المجتمع ، عند من لا يتخلد إلا عن فضائل تشهاها المجتمع ، أو فريق من المجتمع ، ولا يصف إلا رذائل تألم منها المجتمع ، أو بعض المجتمع ..؟! إن الصوفية فى رأينا هم آخر من يجوز الأخذ بأقواله تأريخاً للمجتمع فى عصرهم<sup>(٢)</sup> .

بل لقد عرض الدكتور لحديث الشعرائى عن وقائعه مع الجن ، ثم عقب عليها قائلاً : إنه كذاب ! ووصف عقليته فى موضع آخر بأنها عقلية عامية .

(١) التصوف الإسلامى ج ١ ص ٣٤٠

(٢) انظر شرائط المؤرخ فى كتاب « منهج البحث التاريخى » لزميلنا الدكتور حسن عثمان .

ووصف حديث الشعرائى عن نفسه بأنه يدل على حق<sup>(١)</sup> ، وإن عاد  
فنفى عنه الحق ، عند الحديث على خبرته بأهل زمانه<sup>(٢)</sup> ، ولا ندرى كيف  
يتأتى لكذاب عامى التفكير يوصف بالحق ، أن يكون مؤرخا يطمئن الدكتور  
إلى صدق أحكامه .. !

### التفسير السيكولوجى لكذب الشعرائى :

إن ما يرويه الشعرائى عن نفسه ، من اتصال بالأرواح وتعامل مع الجن ،  
وما يتحدث به عن كراماته وخوارقه ، قد يفرى بالشك ، ويدفع إلى تكذيبه .  
كما كان الحال فى موقف الدكتور منه . ولكن تفهّم الشعرائى فى ضوء المنطق  
العقلى وحده ، يبدو لنا ضلالا مبيّنا ، لأن الرجل كان طوال حياته يعيش فى  
جو دينى مشبع بالتصوف ، استمد منه غذاء عقله ، وأشبع به جوعه قلبه ،  
ومن هنا كان لابد من النظر إلى نزعات نفسه وتيارات فكره ، فى ضوء هذا  
الجو النفسى الذى كان يتنسم نسامته ، وقد انتهت به حياته إلى إيمان عميق  
مفرط هيمن على منطق العقل فى تفكيره ، وتآدى الإسراف المعن فى هذا  
إلى ما يسميه علماء النفس بالمدركات الخاطئة Illusions والأوهام المجسمة  
Hallucinations ، فأدرك أشياء ( موجودة بالفعل ) ولكنه أدركها على غير

(١) التصوف الإسلامى ج ٢ ص ٢٨٣

(٢) المصدر السالف ج ٢ ص ٣٠٢

وجهها الصحيح ، وتصور وجود أشباح مجسمة ، لم يكن لها وجود إلا في وهمه ، وبهذا انقلبت الحقائق في نظره ، أو اختلق الكثير منها اختلاقاً ، فبدت الأشياء التي لا تتضح في عينه ، أشباحاً للجن أو الأرواح ، أو كانت هذه من خلق تصوره ، لأنها تسير نزعات قلبه ووساوس نفسه ، وتلتئم مع الجو المعنوي الخفي الذي يستغرقه ، ومن السهل على من يكون كذلك ، أن يتمثل الجن في خاطره ، فتبدو صورها في ناظره ، أو تتحول صور الأشياء إلى أشباح للجن والعماريات وما إليها بسبيل .. ! ومن ثم يستجيب لمآها بتصرفات لا يرتقى إليها الشك في صدق حقائقها ، فإن حدثنا عن وقائعه مع سكان هذا العالم الخفي واستجاباته لسواكها إزاءه ، قلنا إنه مخدوع وليس بخداع ولا كذاب ... وبمثل هذا تفسر أحاديثه عن تعامله مع الجن وأرواح الموتى ، وما يرويه عن نفسه من كرامات وخوارق عادات ، مما لا يتمشى مع منطق العقل ، ولا يسائر المؤلف من سنن الطبيعة . أما اتهامه بالكذب أو الخداع ، فربما كان أدخل في باب التجني ، منه في حسن التأويل ، الذي تبرره حياة الرجل وسمعته . وإن صح هذا التأويل ، قوَّى من موقفنا في رفض أحكامه على عصره ، واعتباره مؤرخاً مجتمعه .

### أثره في المصريين :

أنشأ الشعراى فرقة الشعراىة فىما أشار « لىن » E. Lane و « شاخت » Schacht ، ولكننا أشرنا إلى أن ابنه الذى تولى أمر هذه الفرقة بعده ،

لم يحسن قيادتها ، فاضمحل أمرها ، وإن كانت قد نهضت بعده قليلا ، ثم  
عادت إلى الركود والاضمحلال ، واختفى اسمها بعد .. !  
ولهذا صح ما يقوله المستشرق فولرز ، من أن حديث البعض عن فرقة  
اسمها الشعرانية ، لا يعبر عن الواقع تعبيرا دقيقا .

ومع هذا فقد كان الشعراني - فيما عرفنا - واسع النفوذ عند معاصريه  
على اختلاف طبقاتهم ، عميق التأثير في الأجيال التي أعقبته ، هيمن على  
ساسة البلد وعلمائها ووجوهها ، وسيطر على قلوب أهلها في عصره وما تلاه ،  
لأن المشتغلين بالتصوف ممن يزاولون الرياضات والمجاهدات ، ويطمحون إلى  
المشاهدات والمكاشفات ، والمنصرفين عن الدنيا ، الزاهدين في فتنها ومباهجها ،  
والقائمين بالإقبال على عبادة الله ، ولو فاتهم الحرص على العلم بأحكام دينه ،  
كل هؤلاء يجدون في بطون العشرات من كتب الشعراني ، ثروة طائلة من  
الآداب والأخلاق والمعارف والأسرار ، ومن هنا استطاع الشعراني وأمثاله  
أن يطبعوا بطابعهم روح العصر الذي عاشوا فيه ، والأجيال التي أعقبهم ،  
وكان للشعراني في هذا القدر العملي ، بفضل إنتاجه الخصب ، وإشراق  
صفحته الوضوءة ، ولما انقضى العصر العثماني ، وأقبلت الحملة الفرنسية على مصر  
( ١٧٩٨ م ) ، اتصل المصريون بأوربا ، وأخذت مدينتها تنسلل إليهم ،  
وتفشو في حياتهم ، وتغريهم بمقاومة التقاليد التي ورثوها عن الشعراني

وأمثاله . . . ومع هذا فإن في الشعب المصري إلى يومنا الحاضر ، طبقة تمثل  
سواده الأعظم ، هي قطعة من الماضي السحيق ، تخلفت عنه ، والزمان ماض  
في طريقه قدما لا يبطل في مسيره ولا يثقل رجله ، ليمكن المتخلفين عنه  
من اللحاق به ، فظلت هذه الطبقة تحيا على تراث الماضي السحيق وتقاليده ،  
وتمثل في حياتها آثاراً تخلفت عن الشعراني وأمثاله منذ قرون طوال .



وبعد ، فهذا هو « الشعراني » إمام التصوف في عصره - كما قلنا في  
صدر هذا الكتاب ، بل أعظم صوفي عرفه العالم الإسلامي كله ، كما  
لاحظ الأستاذ « نيكلسون » من قبل ، فترجوا أن يكون هذا البحث  
المتواضع ، قد أضاء الجوانب المظلمة من حياته ، وتوحي العدالة في الحكم  
على آثاره ، فكشفت عن المجهول من آفاق عظمته ، في غير إسراف يبعده  
عن طبيعة البشر .

## بضع ملاحظات على بعض المصادر

١ - أغفل « بروكمان » ذكر : ( ١ ) لواقع الأنوار القدسية في مناقب العلماء والصوفية ( وهو الطبقات الوسطى ) ( ب ) ذيل لواقع ... إلخ ( وهو الطبقات الصغرى ) ( ح ) لواقع الأنوار القدسية في معرفة ( بيان ) قواعد الصوفية ( ولعله النفحات القدسية في ( بيان ) قواعد الصوفية ) والثلاثة موجودة بدار الكتب الملكية بالقاهرة ( مخطوطات ) .

٢ - أورد بروكمان وفهارس دور الكتب في مصر : ( ١ ) ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى - وموازن القاصرين - المرید الصادق مع فريد الخالق - باعتبارها ثلاثة كتب ، وهى رسالة واحدة مخطوطة ، ولها اسمان آخران : رسالة في بيان جماعة سمو أنفسهم بالصوفية ... - صحبة المرید الصادق مع من يريد معرفة الخالق - ( ب ) الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من العلوم - الجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون - لعلهما كتاب واحد ( مخطوط ) .

٣ - تنبيه الغترين ( لا المفترين كما يذكروها « شاخت » - في ( أواخر - أوائل ) القرن العاشر ، على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر ( مخطوط ) .

- ٤ - ( ا ) الدرر المنشورة في بيان زبد العلوم المشهورة مخطوط ( كتب عند  
Schmidt انظر بروكمان ) ( ب ) كشف الحجاب والران عن ( وجه ) أسئلة  
الجان كتب عنه Flügel في مجلة الدراسات الشرقية ج ٢٠ ص ٣ و Kern  
في مجلة MSOS. ج ١١ ص ٢٦٥ و « ماكدونالد » كما عرفنا ( ح ) الجواهر والدرر  
الوسطى - انظر مجلة هسپيرس Hesp. الإسبانية ج ١٢ ص ١٢٥ و ١٠٢٩  
( د ) لواقع ( لوامع ) الأنوار في طبقات ( السادة ) الأخيار ( هو الطبقات  
الكبرى في جزئين ) كتبت عنه مجلة المراسلات الإفريقية عام ١٨٨٤ ص  
٣٦٧ وترجمه إلى التركية « على السيواسى » . ( هـ ) درر الغواص على فتاوى  
( مناقب ) سيدى على الخواص - انظر مجلة الدراسات الإسلامية ج ٢ ص ١٣٢٩  
( و ) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر - انظر مقال Flügel في  
المجلة السالفة ج ٢١ ص ٢٧١  
( ز ) الميزان ( الخضرية أو الشعرانية وهى الصغرى ) - انظر مقال  
جلد تسبير في المجلة السالفة ج ٣٨ ص ٦٧٨ وما بعدها ، وقد ترجمه إلى الفرنسية  
Dr Perron تحت عنوان : Balance de la Lois Musulmane ou esprit  
de la legislation Islamique et divergences de ses quatres rites  
jurisprudentiels.  
وقد أشرنا في صلب الكلام وهوامشه ، إلى غير هذا من أبحاث وضعها  
المستشرقون عن الشعرانى ، فى الإنجليزية والفرنسية والألمانية ونحوها ، وشكراً



عن جزيلاً للزميلين العزيزين : « الدكتور عبد المنعم أبو بكر » أستاذ التاريخ  
التقديم المساعد ، و « الأستاذ بخاطره الشافعي » اللذين استعنت بهما على فهم  
ما كتب عن الشعراني في الألمانية . وحسبنا الآن أن نذكر من أبحاث  
المستشرقين :

1 — Brockelmann, Gesch. d. Ar. Litt.

ج ٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٨ وفي الملحق ج ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٦

2 — Vollers, Ash - Sha'rani. ( Ency. of Religion and Ethics

3 — J. Schacht, Al - Sha'rani, ( Ency. of Islam. )

4 — D. B. Macdonald, (1) The Religious Attitude & Life in Islam

في المحاضرة الخامسة .

(2) Aspects of Islam

في المحاضرة الثامنة

5 — R. Nickolson, A Litterary Hist. of the Arabs.

وغير هؤلاء ممن ورد ذكر أبحاثهم في صلب الكلام أو هوامشه .

وبعد ، فشكراً جميلاً للذين أعانوني على الاتصال بكتب الشعراني

مخطوطة ومطبوعة - وأخص بالذكر منهم الأستاذين عبد المنعم عمر ومحمد

سعيد عامر وغيرهما من أمناء المكتبة الملكية وموظفيها . . .

## فهرس الكتاب

صفحة	صفحة	صفحة
٧٤	٣	مقدمة
٨٥	٥	لمحة إلى عصر الشعراني
٩٥	١٥	الباب الأول
		سيرة الشعراني علما وصوفيا
٩٦	١٦	١ - سيرته
١٣	٢٦	٢ - زاوية الشعراني
٢٣	٣٧	٣ - كيف تصوف الشعراني
٣٣	٤٧	الباب الثاني
٤٢	٥	علاقة الشعراني بعماصريه
٥٥	٤٨	١ - الشعراني مع العلماء والفقهاء
	٥٩	٢ - الشعراني مع شيوخ الطريق

## للمؤلف

- ١ - الشعراني إمام التصوف في عصره .... أغسطس ٩٤٥
- ٢ - الفلسفة والإلهيات - ترجمة عن « ١٠ غليوم » في كتاب تراث الإسلام أكتوبر ٩٣٦
- ٣ - قصة الكفاح بين روما وقرطاجنة .... نوفمبر ٩٣٦
- ٤ - الأحلام عند مفكرى الإسلام - دراسة مقارنة - يصدر في أوائل سبتمبر ٩٤٥
- ٥ - التذوق بالغيب عند مفكرى الإسلام يصدر في سلسلة الجمعية الفلسفية في أواخر سبتمبر ٩٤٥
- ٦ - العلم بالغيب - ترجمة عن « شيمرون قدمت ملحقا لرسالة الدكتوراه - سيطبع قريباً
- ٧ - التصوف في مصر إبان الحكم العثماني - رسالة ماجستير - سيطبع بعد

## اعلام الاسلام

- ١ — عمرو بن العاص للأستاذ عباس محمود العقاد صدر في مارس سنة ١٩٤٤
- ٢ — منصور الأندلس « على أدهم » « ابريل »
- ٣ — بشار بن برد « ابراهيم عبدالقادر المازني » « مايو »
- ٤ — المعز لدين الله « ابراهيم جهلول بك » « يونيه »
- ٥ — محمد عبده للدكتور عثمان أمين « يوليه »
- ٦ — أبو نواس للأستاذ عبد الرحمن صدقي « أغسطس »
- ٧ — مهدي الله « توفيق احمد البكري » « سبتمبر »
- ٨ — محمد علي الكبير « تقيو غريبال بك » « اكتوبر »
- ٩ — الفارابي للأستاذ عباس محمود « نوفمبر »
- ١٠ — قاسم أمين « احمد فاكي » « يناير سنة ١٩٤٥ »
- ١١ — ابن رشد الفيلسوف للأستاذ محمد يوسف موسى « فبراير »
- ١٢ — الإمام الشافعي لعالي مصطفى عبد الرازق باشا « ابريل »
- ١٣ — ابن تيمية للأستاذ عبد العزيز المراغي « يوليه »
- ١٤ — الشعرائي للدكتور توفيق الطويل « أغسطس »

دائرة المعارف الإسلامية

أوفى مرجع عن الحضارة الإسلامية

تصدرها

لجنة ترعها دائرة المعارف الإسلامية

أحمد السفتناوى . عبد الحميد بنونس

أبراهيم زكى فورشيد . حافظ جهول

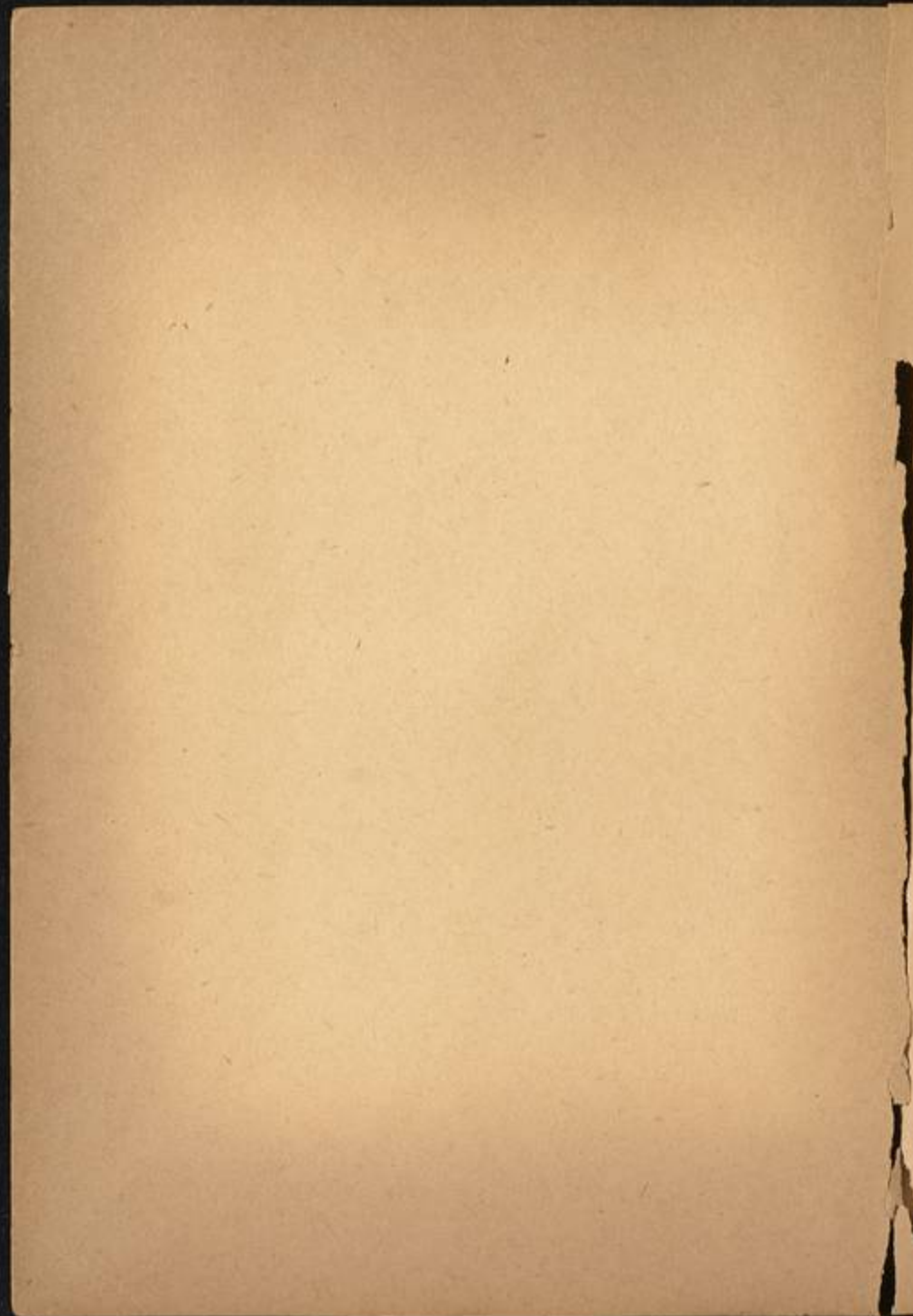
تم إصدار المجلدات الخمسة الأولى

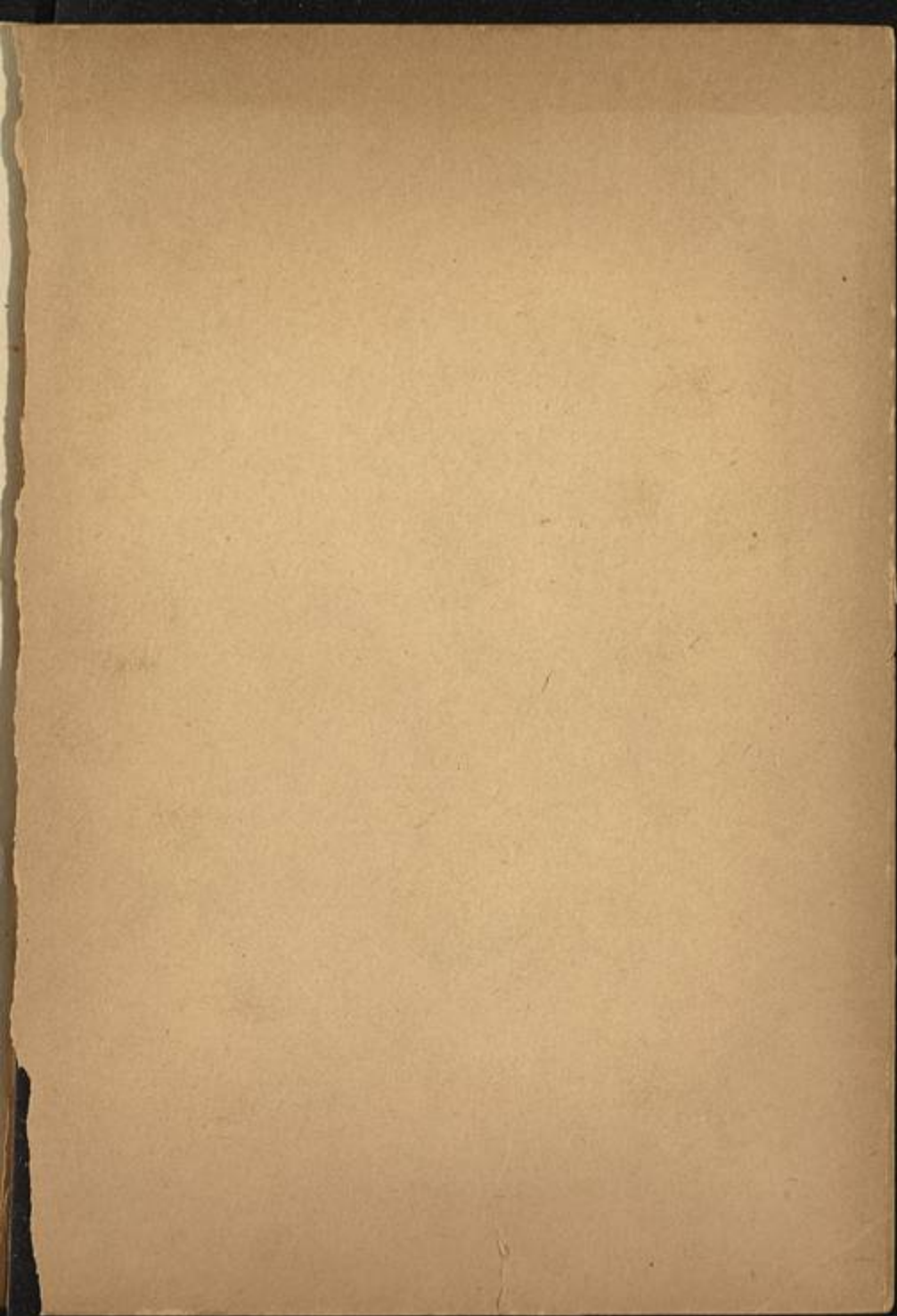
وصدر العدد السادس من المجلد السادس

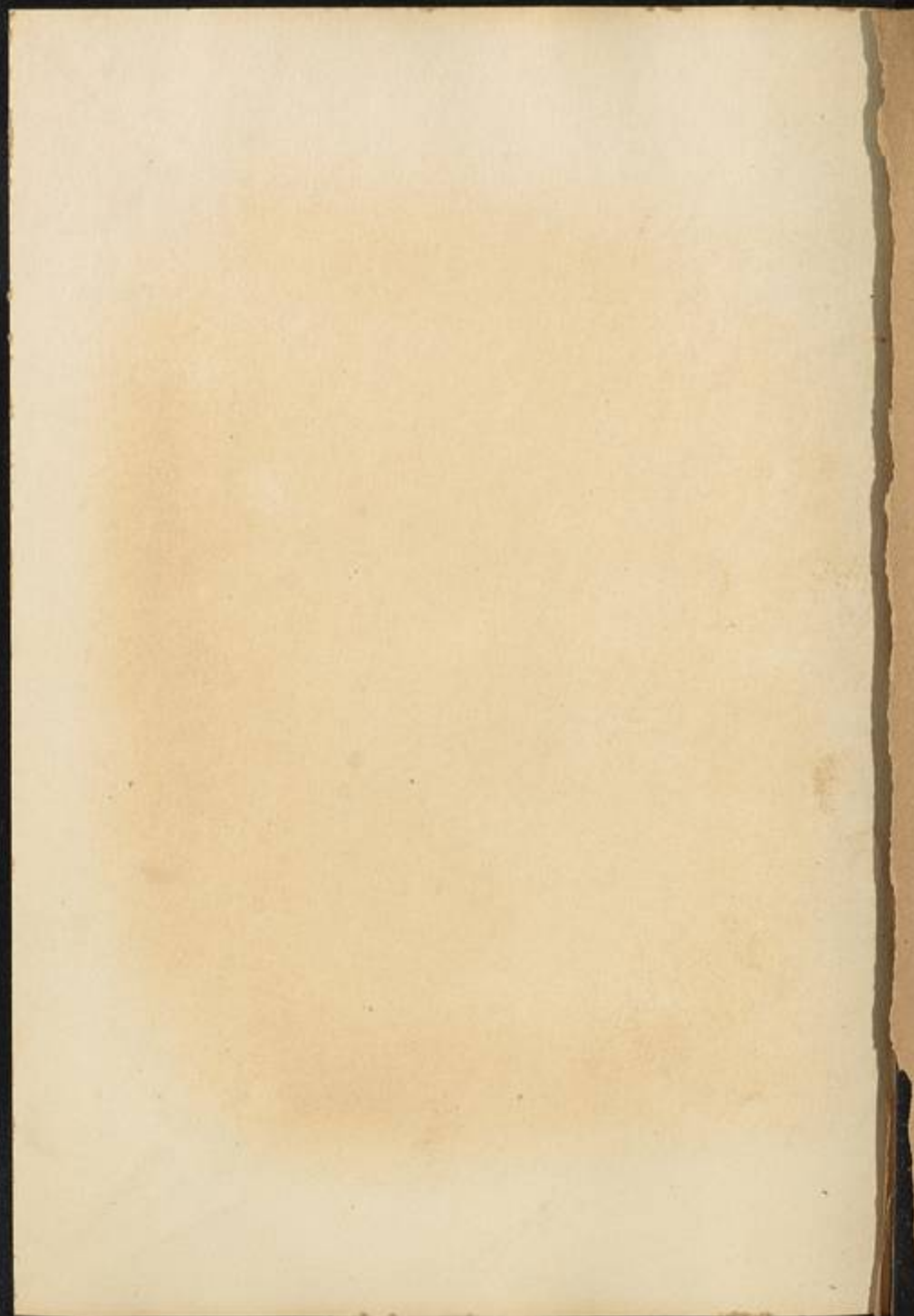
الأشتراك السنوى عن ستة أعداد خمسون قرشاً

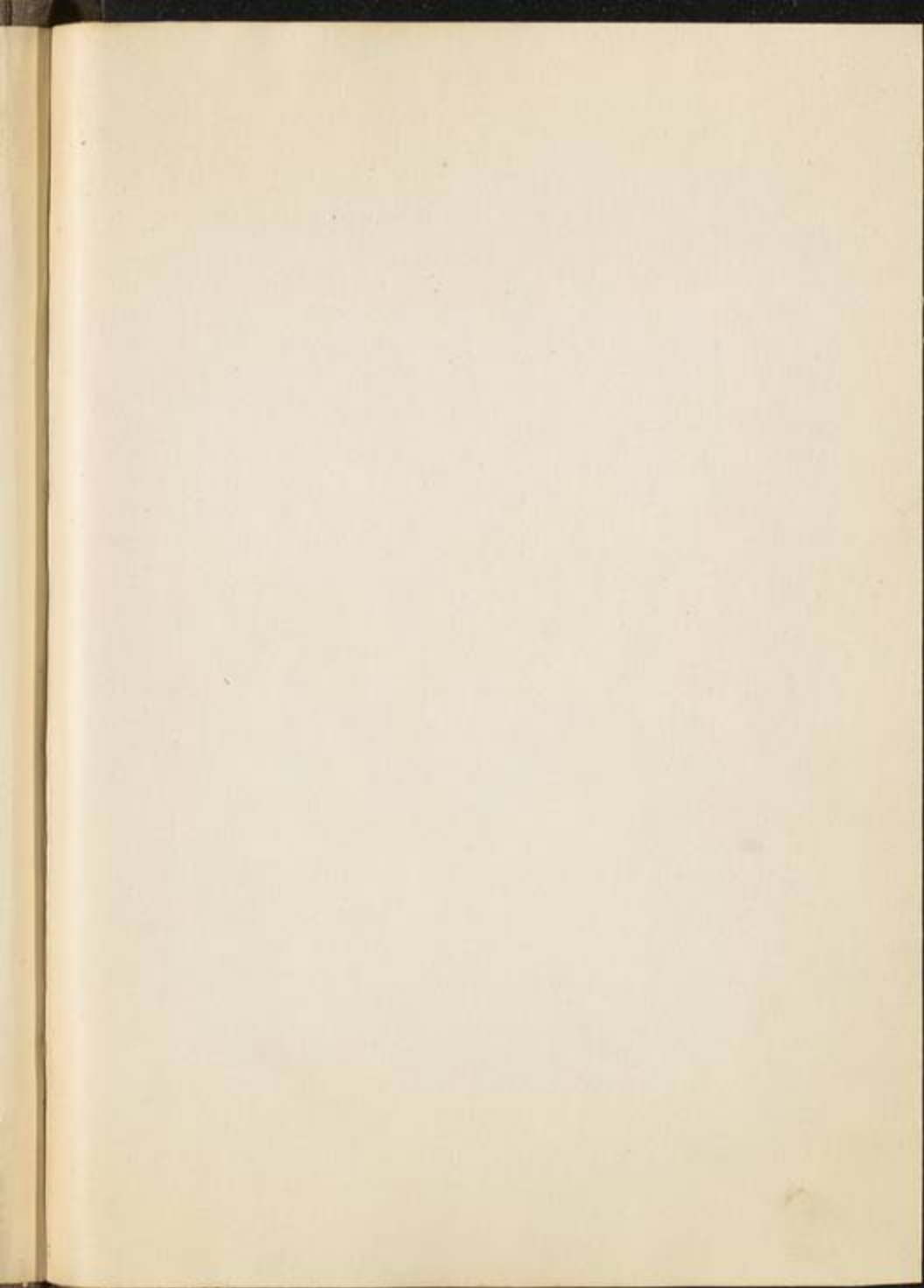
إدارة اللجنة

١٤ شارع حسن الأكبر مصر . ت ٤١٣٧٥











893.7991

T198

BOUND

SEP 29 1955

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58848991

**893.7991 T198**

Sharani, Imam al-Ism